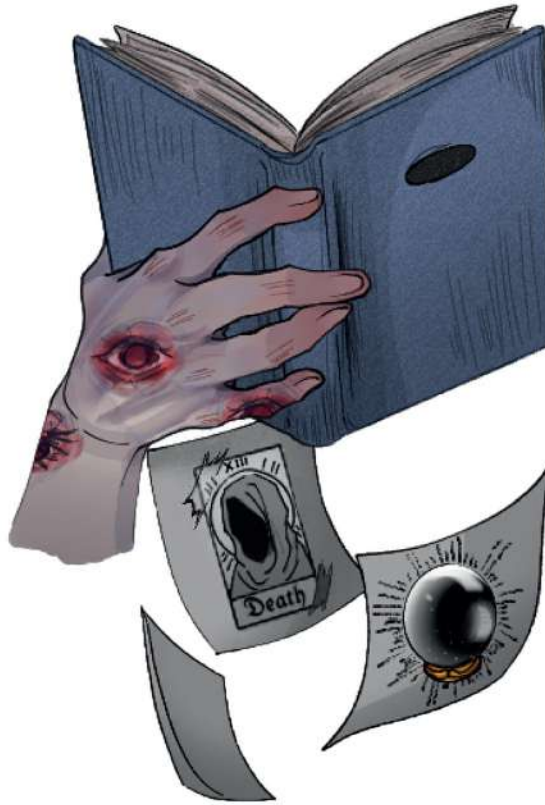

أوراق سقطت من مذكرتي

تأليف

عماد بن عبدالحميد طباخ

الطبعة الأولى ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

أوراق سقطت من مذكرتي
عماد عبدالحميد طباخ

"أوراق ساقطة من مذكرتي"

ⓒ عماد عبدالحميد عبدالجليل طباخ ، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

طباخ ، عماد بن عبدالحميد عبدالجليل
أوراق سقطت من مذكرتي. / عماد بن عبدالحميد عبدالجليل طباخ .- مكة المكرمة ، ١٤٤٤هـ

١٦١ ص ؛ ..سم

ردمك: ٠-٢٨٨٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٤٤/١٦٢٢

رقم الإيداع: ١٤٤٤/١٦٢٢
ردمك: ٠-٢٨٨٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

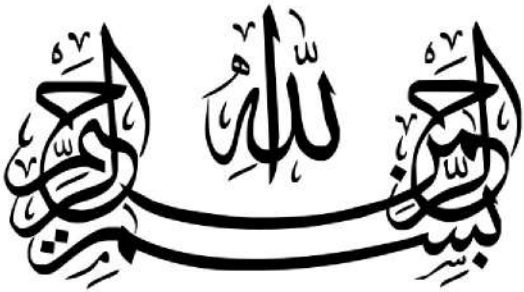

بوح ...

أتمنى عند كل صباح لو بإمكاني إتلاف كل شيء بيننا، بداية بطيفكِ وذكرياتكِ وعطركِ، وأعود إلى الخلف إلى ما قبل اللقاء - ولا نلتقي -

ليعبث بي الحنين، ويأتي بكِ كل مساءٍ يشفعُ ويتوسَّط، وقد أقسمت بأني لن أحنّ إليكِ، واليوم أكتب لكِ مستغفرًا، وفي القلب دقات لا تنتهي لأجلكِ، وبين كتاباتي أنتِ المقصودة، في كل أداة إشارة وأداة نداء وأداة عطف، فعجبًا أن تكسري قلبًا يحدّث الله عنكِ كثيرًا.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾

سورة الأنعام الآية ٥٩

المحتوى ...

الأوراق القادمة كُتبت للذين أيقنوا أن القراءة مفتاح المعرفة وجمال العقل؛ فأول رسالة من السماء للأرض هي (اقرأ).

ومن ثَم فهي مفردات تعبر الكون (ثلاثون ورقة)، ومن ثَم لقائي بعرافة ذات شعر غجري ولباس أثري؛ ثم تعشقني جنية وجهها كالقمر، يملؤه الخبث والغدر، ويغار عليها مغرف المبتور القدم، المشروم الأنف، ذو القرنين، ويعبث بي ماردٌ من نار من نسل خنزب، فرسالتي.

أما بعد ...

فهذا الكتاب لمن يرغب بمساحة من الزمن؛ ليحلّق بعيدًا، ويستشعر جمال المفردات بألمها وفرحها، لمن لم يستطع يومًا أن يعبّر عما بداخله، لا بأس ... فقد اختصرت لك بعضًا مما تشعر به، شيئًا من الحقيقة ممزوجًا بالخيال، فاقرأه بشغف ...

المقدمة ...

تمتعتُ بالحكمة، ولازمتُ الصمت، وحفظتُ حبكِ بين أضلعي والترائب، حتى تطايرتْ أوراق مذكرتي هنا وهناك، بين عدُوٍ يشمت وحبيب لا يشفق عليّ.

فتلك الأوراق المتطايرة كانت أشبه بالحكم القطعي، والإدانة المقررة على نفسي؛ فأصبحتُ ملتفًا بسياج صنعتِه حولي، حتى تنصلتُ عن العالم؛ كي لا أرتطم بأحجار عقولهم.

فتلك الأوراق كانت سببًا في كشف ستري وهتك عرضي؛ لأصبح باختصار مذنبًا في وجه المحاسب الشريف، وألتزم الصمت لبرهة، ولا يسعفني سوى انكفائي على وسادتي؛ فغير لائق النواح لرجل مثلي.

وما كان تطاير الأوراق سوى قدر ساق أقدامي لعرافة تحكي كذبًا وإن صدقت، وتفتن بي جنية وتهيم عشقًا، وتثير غيرة مبتور قدم يضربني، ومارد من نار يعبث بي.

التمهيد ...

تساقطت أوراقي لتكن لدى غيري، ويفشي أَمْرًا كان مستورًا، ويعبث عابثٌ بغير حق، ومتلونٌ يضلل الحقيقة بالباطل، فمن سمح لهم بذلك؟ إنها جريمة يعاقب عليها القانون.

فأقمتُ دعوى بعنوان التشهير بي بخطأ مذكرتي، لأكون بها مدعيًا وورقاتي مدعى عليها، وبعد جلسة تلو أخرى، وسماع الأقوال من أطراف النزاع، ومن ثم الشهود، واكتمال أدوات الدعوى، أصدرت ذات الجهة المعنية حكمًا ابتدائيًا برد الدعوى، والسبب انتفاء الخطأ عن مذكرتي، مما يعني انتفاء المسؤولية التقصيرية، وعدم اكتمال أركانها المقررة فقهًا وقضاءً، وهي (الخطأ والضرر والعلاقة السببية بينهما)، وأن مذكرتي قد هرمت وتعبت من فُحش قلمي، فكان سقوط المدعى عليها مشروعًا.

ثم أستأنف الحكم الابتدائي شكلًا وموضوعًا، وأراعي مدة الاستئناف، لتؤيد ذات الاختصاص الحكم الابتدائي، وأخرج مَلُومًا مَدْحُورًا.

الإهداء ...

إلى كل ورقة سقطت من مذكرتي؛ ظنًا أنها تهرب مني لتكشفني، وقد نسيت أن معالم وجهي الحزين عنوانٌ لحبي ووفائي لتلك الآسرة.

إلى كل ورقة سقطت من مذكرتي رغمًا عني؛ لتفضح أمري وتكشف ستري، وقد نسيتْ أن الله ستّار حين ستر زليخة في قصة سيدنا يوسف عليه السلام وقال عنها في كتابه الكريم: (امْرَأَةُ ٱلعَزِيز) سورة يوسف الآية ٣٠ ولم يذكرها باسمها.

إلى كل ورقة خجول تطايرتْ من مذكرتي؛ خوفًا من فُحش قلمي وجرأة كلماتي، وقد نسيت العهد والبدايات، حين قالت: هَيْتَ لَكَ.

إلى تلك الجنية المختلفة عني خلْقة وفطرة التي رأتني بعين مختلفة.

"أُهْدِي هَذَا الْكِتَابِ"

لماذا سقطت تلك الأوراق؟

لم تكن مجرد ورقة بيضاء داعبتها الرياح فجذبتها بعيدًا عني

بل كنتُ أنا في ورقات

بانزعاجي وهدوئي

بحزني وفرحي

باستيائي ورضاي

ولأنني لا أُدرك كل ما أتمناه لأكتبه ...

فقد كتبتكِ بقدر الأيام التي مضت دونكِ

كتبتكِ في أسطر ليست سوى كلمات

خُطتْ بيدي على ورقة من شدة حزنها هجرتني

حتى أوراقي أبت لقاءكِ!

وأنا مازلت أتوقع نتيجة مختلفة

فمن ظن بالله خيرًا فلن يخيب الله ظنه

ومن توكل على الله فهو حسبه

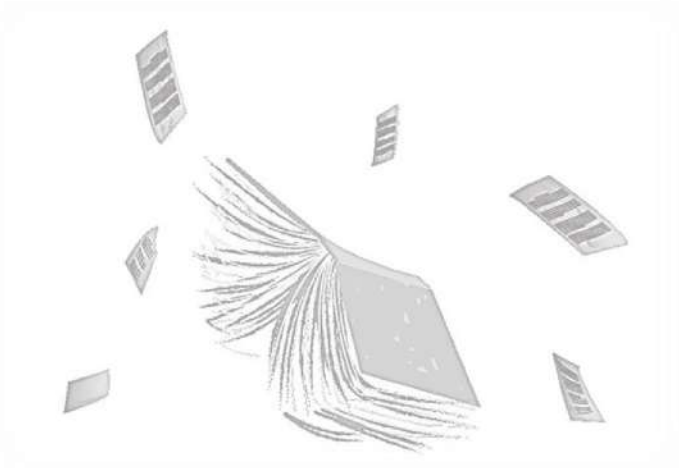

الحنين يجعل من كتاباتي فضائح، ومن ورقاتي عنوانًا لكِ، فالحنين عند كل غروب أراه راكضًا مسرعًا يجوب في تعرجات عقلي، ومن ثم قلبي، ينبش فيهما عن ذكرياتكِ القديمة؛ فتؤلمني دون رحمة، أنا لم أنسَكِ، لكنّي لم أعد أبتسم حين أتذكركِ.

الورقة الأولى

مذكرتي ... قد وثقت فيكِ وكتبتُ فيكِ بما يُباح ولا يُباح

كنتِ معي في زاوية مكتبي تحت إضاءة صفراء

تشعرين بكل عبارة أكتبها

فلا يزحزحكِ بكاء

ولا يؤلمكِ آه

تراقبين قلمي في كل لحظه انقضاء

فتصبرين وتتحملين

وتعلمين أن في صدري عويلًا مجاعًا

لا يشبع إلا بالكتابة

حتى انتهي وقتها

فأدفن وجهي في وسادتي وأصرخ

لأخفف عنكِ ألمك

وأبدأ ألمًا آخر بعيدًا عنكِ ...

الورقة الثانية

عندما لامست الرياح وجه مذكرتي

أغرتْها بنعومة هفوتها ولطافة هبوبها

حتى استسلمتْ مذكرتي لمداعباتها العابرة

فباغتتها بانتزاع أوراقها؛ لتفيق مذكرتي من غشيتها

وتحاول جاهدة أن تستر نفسها

وحافظتْ على ما تبقى من ورقاتها

فرحلتْ من رحلتْ وبقيتْ من بقيتْ

ثم تحزن وتندم على ما حدث

فكيف بنسمات رقيقة تتحول لريح عاصفة مزقت مذكرتي؟

ولا أعلم مَن أحاسب؟ آلريح الخائنة أم المذكرة الجاهلة؟

"مذكرتي"

هل كنت مقصرًا في احتوائي وواجباتي الخاصة بكِ؟

الورقة الثالثة

إذا وصلتك تلك الرسالة الصامتة التي لا يعقلها إلا العقلاء، فإياك وطمسها أو إبقاءها حبيسة الأدراج، وعليك الأخذ بها، ومن ثم الرحيل الجميل.

الإهمال عندما يغزو العلاقة يعطي حكمًا شرعيًّا واجب النفاذ بالرحيل، فيقتل الحب وينزع الاشتياق ببطء لنعود غرباء.

فهو رسالة بطيئة باطنها ابتعاد، وظاهرها انشغال، رمادي اللون، يركن على رف الانتظار، مظهره كئيب مختل بالاهتزاز، تقتله الصراحة كقتل نفس بريئة ظلت تتساءل: بأي ذنب قُتلت؟

الورقة الرابعة

بينما كنت أرتشف قهوتي الباردة، باغتتني مسنة على وجنتها خطوط خضراء وتعاريج زمن كاد يفتك بها، تنظر لي بحدة، وتخبرني: إن أردتَ قرأتُ طالعك، فاقلب الفنجان، فترددتُ للحظة ما بين الخوف والأمل؛ فلا ثالث لهما، أخاف من مصير فراق محتوم، ومتأملًا لقاء بعد فراق.

وأنا أعلم أنها مجرد كلمات، ولكني غريق لها، طال انتظارها، وزادت حيرتي، فانصرفتُ هاربًا تاركًا قهوتي، وكأنني لا أرغب بقراءة طالع لا يجمعني بكِ.

الورقة الخامسة

لست أنا ... صراع داخلي بين يقيني وخيالي

من أنا؟ ما عدت أعرف من أكون؟

أنا نهاية البداية!

أو بداية النهاية التائهة!

أسـعى إلى الخـلاص بـلا خـلاص

أرغب بالهروب وأحتاجكِ بشـدة

أنزعكِ فأستدمي قلبي وأوجع ذاتي

وأعيدكِ فتنزفينني وتنهكين طاقتي

مئات الأعذار والكذبات

أخرى تلو أخرى

حتى فقدتُ ذاتي!

من أنا؟ ومن أنتِ في حياتي؟

تحت أي مسمى، وأي اعتقاد أضعكِ؟

الورقة السادسة

لو امتلكت عصا سحرية فلن أعيدكِ، بل كنت سأفضل نسيانكِ وأعيد ترتيب نبضاتي، ومن ثم ذاتي، ولن أبحث عن علاقة أخرى؛ فجمال العلاقات تأتي دون جهد.

فلست ذلك الراغب بالماضي لأعيده، بل كنت سأجدد الحاضر وأستثنيه، سأجعله مزهوا بالألوان، ومليئًا بالأزهار؛ ليحتويني عبق المكان، بعيدًا عن كل ما يكدر صفوي.

أوليس جميلًا أن أمتلك عصا تمحيكِ أيتها الآسرة؟

الورقة السابعة

الكتابة صعبة جدًا ومربكة في نفس الوقت، فكيف لي أن أجعلكِ تقرئين ما غصصت به واختنقت بلا بوح؟

فهي لا تفيدني بقدر ما تضر بي!

فأنا من شج الخذلان رأسه، وأسال دمعه، وأدمى قلبه ...أنا من صارع السقوط والوقوف وحده، دون أن أخبر أحدًا؛ حتى لا يضيع أجري ...

إنني أحاول النهوض مرارًا وتكرارًا، دون أن أطلب يد العون، فمازلت قويًا كما عاهدت نفسي سابقًا، ولن أعود كسابق عهدي ما حييت، وإن توجب عليَّ العودة فسأكون مختلفًا لا أشبهني.

هل رأيتِ أصابع تبكي؟

أنا من بكتكِ أصابعي في سطور

ولا أنتظر أن تنال كتاباتي الإعجاب

فأنا لا أكتب ليصفق لي الآخرون

أنا أكتب بقلم موجوع

حتى يكاد الحزن يفقد وعيه

ليركع أمامي ذليلًا مكسورًا

متضرعًا الخلاص

فأحمله وأغادر ...

الورقة التاسعة

هنا حكاية عاشق ... بين أمل وصبر

إن المسافة التي سافرتِ بها لن تحجبكِ عني، لقد بنينا أشياء كثيرة معًا، لا يمكن أن تغيّبها المسافات، ولا أن يهدمها الفراق؛ لأنها بنيت على ركيزة من الحب لا يتطرق إليها التزعزع.

أهذا ما أردتُ أن أقوله لكِ حين كتبت هذه الورقة؟ لست أعلم ... ولكن صدقيني أيتها الآسرة، إنني تعذبت خلال الأعوام الماضية، عذابًا أشك في أن أحدًا يستطيع احتماله، كنت أجلد صباحًا ومساءً بأسواط الشوق وهيمنة الحنين دون رحمة، وبدت لي حياتي كلها تافهة من بعدكِ.

كم كان الدرس قاسيًا أيتها الآسرة حين علمتِني: عندما وُجد الخطأ وجدت العقوبة! وكم عجزت أعلمكِ: عندما وُجد الخطأ وُجد العفو!

كيف لكِ أن تتجاوزيني؟

الورقة العاشرة

رحلت بإرادتها المطلقة ولن تعود

رحلت لاكتفائها!

هي جدًّا أنانية، ولن تكلف نفسها عناء الرجوع!

هكذا قال لي صديقي الذي لم أصدقه

وتمر الأعوام وأبتسم لصبري الذي يهددني كل مساءٍ بالرحيل

حينها صاحبت عطركِ وطيفكِ

الأكثر حضورًا ووفاء منكِ

أعيشكِ خيالًا يملأ واقعي

هكذا هو الحب

يجعلنا أغبياء دون أنْ نشعر!

يجعلنا ضعفاء دون أنْ ندرك!

كيف لأغنية عابرة أن تعيدكِ لي في ترانيمها، وتذكرني بكل لحظة كنا بها معًا، وبكل مكان اكتشفناه سويًّا، أنا لا أنكر حقيقة كوني أحاول جاهدًا إخباركِ بأني أحبكِ، ومازلت باقيًا على أمل رجوعكِ، ولكنني لم أخرجكِ لأعيدكِ.

بل أنتِ من اخترتِ الفراق برغبتكِ، ومازلتُ أنتظر رغبتكِ لتعيدكِ ... وإن عدتِ سأعيدكِ ببداية مختلفة، لا تشبه النهايات؛ فأنا أحتاج وصلكِ لعلاج سقمي. فهل ستعودين؟

وتبقى النهايات السعيدة، لا في ورقاتي؛ بل في تلك المسلسلات، عندما يجد العشاق فرصة للزواج، ويجد الغريق فرصةً للنجاة.

"منذ رحيلكِ، وأنا أجيد الرقص على أوجاعي وأحزاني؛ لأفرَّ منكِ إليكِ"

الورقة الثانية عشرة

أنتِ لا تعلمين ما الذي فعله غيابكِ؟

أصبح كل شي من بعدكِ

باردًا كمشاعركِ

شاحبًا كوجهي

لا معنى ولا لون

فغيابكِ حمّلني ما لا طاقة لي به

كيف لكِ أن تفعلي ذلك؟

هل حقًّا تجاوزتِني؟

أنا ما زلت عالقًا في آخر عناق

في تلك اللحظة التي أقسمتِ بها

أنكِ لن تكوني إلا لي!

هل استبحتِ قسمكِ؟

الورقة الثالثة عشرة

أنا وحبيبتي المستعارة وأنتِ

نعم أنتِ من جعلتكِ في الترتيب الأخير لكل شي بعد أن كنتِ أوله، وعندما أكتب فأنا لا أشكو؛ ففي الشكوى انحناء، أنا متواضع بدون ضعف، وقوي بلا غرور، وبمزاجي ألتفتُ إلى من أريد؛ فعنوان دستوري: لا أجبر نفسي على أحدٍ، ولا أجبر أحدًا عليَّ.

إن كنتِ تظنين أن برحيلكِ قد حطمتني، فتفكيركِ خاطئ يا عزيزتي؛ فأنا الكبرياء بذاته. وما كتب هنا وهناك ... ليس دليلًا على أن تكوني مقصودة كما يزعمون، فأنا من توهمتُ حبيبة مستعارة، وكتبتُ عنها في خيالي، وأشكلها كيفما أريد أضعفها تارة وأقويها تارة أخرى؛ فالحروف تأتي طوعًا لي، وأنا من يعبث بكما في ورقاتي.

الورقة الرابعة عشرة

أنا وأنتِ نشبه البحر

عندما كنتِ معي وجدتِ عالمًا مختلفًا، فقد كنتِ تهربين من ضيق الأماكن لاتساعي، فتنجذبين لرائحتي وتبحرين بي عبر سمائي، وتتلاعبين بأمواجي، وتتمتعين بخيراتي؛ فأنا من يرحم جرح الشطآن من كتابات الزور المؤلمة، ولا أجد من يرحم جرحكِ بي ويخففه عني.

أما أنتِ فغدركِ فاق إخلاصي، وخبثكِ غلب وفائي، فأنتِ من أغرق بي المراكب، وأنتِ من دمرتِ الموانئ، وغدرتِ بمن آمنكِ وأولهم أنا، فكم أنتِ عميقة وعقيمة!

هل قلتُ: نتشابه حقًا؟ كيف لنا أن نتشابه بالاسم ونتضاد بالأفعال؟ عفوًا كنتُ أكذب فلا مقارنة بيننا رغم تشابهنا.

الورقة الخامسة عشرة

هل حقًّا عدتِ لدراسة أدوات النداء؟

لتجدي الثغرة التي استصعبتِ فهمها في جميع نداءاتي أيتها الغائبة.

كيف لي أن أعيدكِ لتلك الطاولة والكرسي؟ لتحضري صباحًا درسًا فاتكِ، وتفهمي النداء بجميع أدواته في قربكِ وبعدكِ، وبين أسطر كتاباتي وحسرتي على فقدانكِ ... فلربما حضورٌ متأخرٌ خيرٌ من فراقٍ أبديّ.

يا أيا أيي ء وا

الورقة السادسة عشرة

عندما أكتب فأنا أجعلكِ تقرئين ما أريد أن يُكتب

لذلك أنتِ ماء قلبي، ولكنكِ بخيلة السقيا

وغيمة روحي، ولكنكِ لا تظلليني

وسماء عيني التي طالما أردتها تمطر بلقاء أبدي

إلا أنها شحيحة ...

لذلك سأتجدد بالنوم وأذهب لمضجعي

بجانب تلك الوسادة الخاوية التي أتأملها كل ليلة لأتذكر

انسدال شعركِ من فوقها، في كل لحظة نوم، وفي كل استيقاظ

حتى انتقلتُ للجانب الآخر من الفراش

ولا تسأليني عن المشاعر التي ثارتْ بي في ذلك الوقت

ففي تلك اللحظة لم أكن أحتاج سوى لعناق.

الورقة السابعة عشرة

مضادان لا يجتمعان في علاقة، وإن اجتمعا يرحل الحب أولًا!

فالحب ...

كالنسمة الباردة، هادئ الطباع، لطيف أنيق، أينما وجد فهو انسجام واكتفاء لروح قبل جسد، واحتواء وتقدير ووفاء وثقة، تعرفه القلوب وتراه العيون، وإن وجد في كسور فلا يرحل قبل أن يرمم هذه الكسور ويجبرها، ويعيد إليها الحياة من جديد.

أما الشك ...

فمضاد الحب وعدوه اللدود، متناقض الأفعال، معدوم الثقة، دائم الحذر، حقود غير متسامح، يجد صعوبة في التصديق، مريض سريع الغضب، سيء الظن، تعسّفي وإن وجد في كسر فلا يقيمه، بل ينخُرُه، ويأخذك من سواد لسواد آخر.

رحلة هاتف

عندما اتخذتُ قرار ألّا أحادثكِ مرة أخرى

وأخفيتُ الظهور والحالة

وكنتُ سعيدًا جدًا بشجاعتي لاتخاذ قرار كهذا!

لم أكن أعي سوى أنَّ ما فعلتُه هو الصحيح

ثم يأتي الليل حاملًا السكون

وما الليل سوى بداية البدايات لكل شي

ولا أعلم كيف لي أن أحدّث عنكِ الليل

سامرته طويلًا، فأحببت قمره ونجومه

ليحدثني الليل هامسًا:

وما ورقاتك سوى طيف ماضٍ!

أجدتَ كتابتها بقلم قوي

ولو اخترتَ حاضرها لعقم قلمكَ

لتصبح بلا ورقات

الورقة التاسعة عشرة

عندما تتكاثر الخيبات

سأطرق باب الهرب من كل شيء

حفاظًا على ما تبقى من ماء وجهي

الذي غابت ملامحه معكِ

فلا طاقة لي بصدمات جديدة وخذلان متكرر

إنني أبحث عن الأمان بعيدًا عن مساكن الخيبات

فقد فقدتُ بعدكِ شهية التمني يا آخر الأمنيات

والقدر يبعدني عنكِ وإن اجتهدتُ ألفًا

وبينما كنت في طريقي أمضي، وأعيد ماضيا ببطء، وأحاول ترتيب ذاتي؛ لأبتعد عن كل شيء تسبب لي بالألم يومًا.

فإذا بي أتعثر أمام نظراتكِ، تهزني وتحرك في مالم تحركه فوج كلمات قبلكِ، نظراتكِ يا سيدتي تجرح بلا شفرة، وتدمي بلا آثار.

فقط أنا من يشعر بانتفاضتي واحتضاري وحدي كما كنتُ! ومازلتُ! ولا أنكر، فالخطأ خطئي؛ لأني وضعت كل مشاعري وحبي في موقدكِ، وأنتِ تتلذذين بإحراقها، وأنتِ على يقين بألَّا ملجأ لها إلا أنتِ.

لم تكن عشقًا عابرًا، كانت حياة، كانت حكاية أُسلي بها ذاتي، كلما خذلت مرارًا ومرارًا أعزي نفسي بماضيها فيزيد وجعي ألمًا.

حتى نفسي تنصلتْ مني، وأبتْ أن ترحمني من لومها بقولها: "كنتَ تعلم وتتغاضى لأجل البقاء معها" ونسيتْ أنها أمارة بالسوء!

كنتِ بمثابة الريشة التي على رأسي

كلما تحدثوا عن الخذلان

كنت أتحسس عباراتهم بألم

وكأنهم يقصدوني دون أن يقصدوني

مهما كتبتُ من صفحات وكتب

فالكتابة ليست بتلك السهولة التي تظنينها

فقد نزعتُ قلبي ووضعتُه في حبر وألصقته على ورق

فاستشعري الوجع الذي أنا به إن كنتِ تشعرين

ولا أظن ذلك، وإن كان بعد الظن إثم

فهدوئي الظاهر للجميع

داخله صراخ لا ينتهي

وتصدعات لا يسعفها أحدٌ

بعد أن استبحتِ كسري ...

"وفي معركة الحب"

إما أن تخرج منكسرًا أو مقهورًا

أعلم أنكِ لن تقرئي ما كتب هنا، لكني سأتحدث عنكِ

أحببتكِ بشدة، وأردتكِ بشدة لا يعلم بها أحدٌ من خلقه

"وعندما ذهب نصيبكِ لغيري"

كنتِ تسكنيني بشدة

أردت أن أقاومكِ، فإذا بي أضعف أكثر وأكثر

حتى تمكنتِ مني

لأجعلكِ انشغالي

لم أخبركِ بشيء

ولم أقترب منكِ

لأن قربكِ يؤذيني

وعندما تيقنتُ أنكِ رحلتِ بلا عودة

أصبحتِ أمنيتي الأخيرة

أنا لستُ وحدي في هذه الفوضى العارمة

وليستْ هذه دعوى لتحسني الظن بي

فأنا أيضًا أملك نَزَعات شيطانية أحيانًا

وأخاف أن أعصي الله بها فيزيد تأخر لقائكِ

وما الرجاء من لقائكِ؟

هل سأعود ذلك الرجل الذي أحببتِه في البدايات؟

هل سأنسى ما مررتُ به معكِ في الماضي؟

فما العوض في رجاء لقاء مات منذ أن اخترتِ الرحيل؟

ألم أخبركِ بأنني في فوضى عارمة؟

الورقة الخامسة والعشرون

عند باب الكرامة

يُقتل الحب صبيًّا لم يكبر بعد

والمضحك أنى مازلتُ متمسكًا بهذا الصبي رغم موته

فأقوم بتعطيره كلما فاحت رائحته

وأجمله كلما تشوه أمامي

ولم أستوعب وفاته حتى الآن!

أكتب ولا أبوح بالكثير

أشعر بالألم وما زلتُ أرغب بالبقاء

لأنني قوي برغم ذلك الماضي المؤلم

فقد تعلمتُ بعد فراقكِ

أن أولّي وجهي عن صغائر الأمور وخبث النوايا

فاعتزلتُ ما يؤذيني، واحتفظتُ بالأنقياء من حولي

لأكتفي بهم في هذه الحياة

الورقة السابعة والعشرون

لا تدعها تقودك للظلام لتصبح ذا قلبٍ محطم

فأنا أكثر من يعلم لأنني أنت

ستتأذى في كل تحدّ تضعه أمامك

ما رحل رحل ولن يعود

فلتكفر عن خطاياك فلديك حياة تعيشها

وحب ستشاركه مع من يستحقك

فكفاك ألمًا وكن سعيدًا

هكذا خاطبني قلمي على ورقتي!

الورقة الثامنة والعشرون

ستصلكِ هذه الورقة، وأنا على قيد الحياة، وقيد الوفاء، وقيد الأمل، هناك فراغ حاولتُ ملأه بكل شيء ... عطركِ، ذكرياتكِ، طيفكِ.

ولكن الحنين يزيدني بؤسًا وألما يصعُب احتماله، حتى أيقنتُ أنَّ هذا الفراغ يكبر، والحقيقة أني فقدتكِ، ولن أمتلكِ، وليس لدي سوى الخيال؛ لأجتمع بكِ وأسرد من خيالاتي قصصًا تجمعني بكِ، وليس على الموجوع حَرَجٌ، حتى أصبح الأمل عاجزًا أعرجَ يرجو الخلاص.

ليتكِ ذاكرة من ورق لأمزقكِ دون رحمة، والحقيقة: خُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا، وكم أتمنى أنسى حبكِ! لأجد النسيان أماني، لم يكن حبي لكِ خطيئة لتحاسبيني عليه بكفرٍ.

الورقة التاسعة والعشرون

أنا لست عاجزًا عن الرد في تلك المواقف

بل كنت قويًّا جدًا في مواجهتها

فلست أنا من يختبئ خلف الظلال

ولست أنا من أستجمع حولي الكثير لأشعر بالقوة

فأنا واحدٌ بقوة عشرة

لكنني ترفعتُ عن صغائر الأمور فجعلت من صمتي كلامًا

واستأثرت الحكمة دون الجهل

حتى لا أجادل أحمق فأصبح مثله

الورقة الثلاثون

في الحادي عشر من أغسطس لعام ٢٠٢١م، أسرني جمال الصباح في هذا اليوم، فأردت أن أشاركه كوب قهوة أبدأ به يومي، فذهبتُ لذلك المكان الذي اعتدتُ الجلوس فيه، وبينما كنتُ أنتظر في ذلك (الكافيه) جذبني تصاعد الأدخنة في المكان، فإذا بي أتأمل أدخنتها لأجد ورقاتي المتساقطة يعبث بها ماردٌ من نار، وأعرجُ لا عليه حرج، وجنية لعوب، وعرافة تحكي كذبًا وإن صدقتْ، والكثير من الأحداث كانت في انتظار كوب قهوة، وأدخنة متصاعدة، ثم تأتي قهوتي السمراء على اسْتِحْيَاءٍ وخجل، وتستوقفني التأمل، وكأنها تخبرني: توقفْ عن التخيلات وابدأ يومك بي واستمتع.

كل يرمي اللوم على الآخر، ويبرئ نفسه ...

مذكرتي، ومن ثَم ورقاتي، لا يهمني تنمركما، ولا يهمني من كان السبب في سقوط تلك الورقات.

يكفي ... فقد يئست! فأنا من جعلكِ مذكرتي، وأنا من جعلتكنَّ ورقات تُقرأ، وأنتِ يا حبيبتي كذلك. أما كلماتي وأوجاعي فقد جعلتهما نجمًا ساطعًا يُهتدى به.

هناك من ينام بجانبكَ كل مساءٍ، وآخر فوق مكتبكَ، وآخر ينظر إليكَ الآن وأنت تقرأ هذه الصفحة، هم في كل مكان؛ لذلك لا تستهن بالأذكار.

أحداث غير متوقعة ...

في طريق عودتي إلى المنزل، صادف أن رأيت ثلاثة صبية لا أعرفهم، يضايقون امرأة ذات شعر غجري ولباس أثرى، في السبعين من العمر، ترتدي قميصًا طويلًا، وتلف على خصرها منديلًا به جيوب كثيرة، وتلبس وشاحين على رأسها، تملأ وجهها التجاعيد، تعرضت للتنمر بسبب مظهرها الغريب، فمضيتُ نحوهم، لأوبخهم، وألقي جَمَّ غضبي عليهم، وما أن رأوني حتى فروا مسرعين! واعتذرت لتلك المرأة الغريبة عن سوء يومها الذي لا يختلف كثيرًا عن يومي.

تنظر إليّ وتبتسم، وتهمس بصوت خافت، لقد كانت مجرد كلمات بأحرف، شعرتُ بالحزن فرحلت واستوقفني حديثها لبرهة، وعندما أدارتْ ظهرها لترحل، قالت لي باستعلاء: لقد هجرتك فارضَ بقدرك!

فقلتُ لها: لم يكن قلبي قاسيًا ليكون الهجر قدري.
فقالت: هل أخطأتَ في حقها؟
فقلت: نعم.
فقالت: أحببتُ شجاعتك، إن أردتَ ... اتبعني.
فتبعتُها حائرًا متسائلًا: كيف لها أن تعلم ما حدث لي، دون أن أخبرها ...! سألتها:

مَن أنتِ؟ فلم تجب!

حتى وصلت خُطاي لمنزل عتيق، تحوطه أشجار معمرة شاحبة رمادية اللون بلا أوراق، وأجد يساره بئرًا متشائمًا بلا ماء، متشقق الأطراف، متهالكًا قابلًا للانهيار.

وأمامي باب خشبي يصعب فتحه بقُدرات رجل مثلي، يفتح الباب وحده! وتنظر لي المرأة متسائلة: ألا ترغب في قدر مختلف ...؟ اتبعني.

فتبعتُها سَبَبًا لتخليصي من بؤسي، ورغبةً في معرفة مَن تكون؟ لتصحبني إلى طاولة مُهَترِئة، تعلوها كرة بلورية الشكل، تحيط بها أوراق التاروت لتضع أمامي سبع ورقات.

حبيبتك - مذكرتك - قلمك - ورقاتك - الرياح - أنت - قدرك

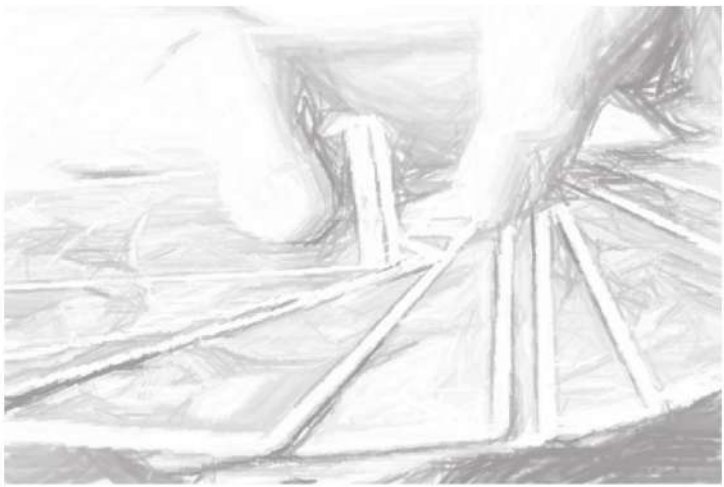

- حبيبتك رحلتْ
- مذكرتك خانتْك
- قلمك استنزفَك
- ورقاتك تساقطتْ
- الرياح استهدفتْك
- أنتَ مازلت متمسكًا بماضٍ لن يعود
- قدرك ابتعد. فابدأ من جديد

أشعر حينها بانقباض داخل جسدي، ويلفت نظري وميض كالبرق يجوب المكان، ويعتريني الخوف للحظة، كاد يتوقف قلبي من هول المفاجأة، وأسمع العرافة تقول: دعيه يا مرجانة لقدره ... وتأمرني بالرحيل، خرجتُ من عندها وأنا أشعر بضيقٍ خانق.

اللقاء الأول ...

٣٠ أغسطس ٩١م

عندما كانت الساعة تحبو نحو الثالثة صباحًا، وأنا في غرفتي صاحبة الظلام الحالك، أسمع التفقيع والقد على أوراق مذكرتي، وتُفتح أوراقها صفحة تلو صفحة، نظرت نحو مكتبي فوجدتُ امرأة صاحبة عينين زرقاوين، مليئة بالخيال، تلبس الرمادي، ذات أجنحة صغيرة، وجهها كالقمر، يملؤه الخبث والغدر، وضفائر شعرها منسدلة على ظهرها، وجسمها يسر الناظرين، تضحك كالطفلة، ومن ثم تتطاير بسرعة على زوايا الغرفة لتقف أخيرًا على كرسي مكتبي تنط نطيطًا، انتابني خوفٌ، قرأت آية الكرسي بصوت محشرج، وسمعت صوتًا يخرج من صدرها، وكأنه صوت عويل وبكاء.

سألتها: من أنتِ؟

فقالت: أنا مرجانة.

فقلتُ لها: وماذا تريدين؟

فقالت: أعجبتُ بك حين رأيتكَ لدى العرافة.

فكانت شجاعتي أقل مني، وتملّكني الخوف، هربتُ من منزلي، ووجدتُ نفسي عند باب المسجد، وأنا ما زلت أستعيذ بالله منها بصوت عالٍ، حتى مزقت أحشاء السكون، ودقات قلبي كادت تكسر أضلعي، انتظرتُ حتى فُتحت أبواب المسجد لأصلي الفجر حاضرًا، وأحصن نفسي، وأقرأ بعضًا من آيات القرآن الكريم؛ لتهدأ نفسي، وأعود لمنزلي.

دخلتُ غرفتي وأقفلتُ الباب والنافذة بشدة، ناديتُ بصوت عالٍ: مَن يمكنه الدخول؟ سمعت صوتًا خافتًا، كان يهمس لي من خلف الباب، ويقول: هل أنتَ متأكد مما تقول؟

أصبحتُ أجوب غرفتي ذهابًا وإيابًا على غير هدى، أشعر بالخوف، والهلع كان زائرًا ثقيلًا بداخلي. حتى استجمعت قواي، وفتحت الباب بهدوء وبحذر تجاه أي دخيل، ولكني لم أجد أحدًا حينها سوى إضاءات الممر المرتعشة، فارتأيت أن أغسل وجهي؛ لأفيق فربما كانت مجرد ضغوطات حتى غسلت وجهي، ونظرت للمرآة متسائلًا:

- ما الذي يحدث؟
- ولماذا يحدث معي كل ذلك؟

حتى اشتعل الغضب بداخلي، وأفرغته بصفعي للمرآة التي أمامي، حتى سقطت مكسورة، ووجدت خلفها شيئًا لم أعهده من قبل! ترى ما هذا الشيء المخفي؟ ومَن وضعه خلف مرآتي؟ قطعة جلد سوداء، كتب عليها بطلاسم من أحرف ورموز وأرقام وآيات من القرآن بالمقلوب، وكلمات غير معروفة بها استغاثت بالشياطين، اقشعر بدني وسرَتْ فيه رعشة من الذعر، والفضول الذي يكاد يقتلني.

- مَن فعل ذلك؟
- ولماذا وضعها خلف مرآتي؟
- وما الذي فعلتُه ليؤذيني بكفر؟

بحثت في متصفح البحث عن رقم قارئ لفك السحر، وجدت رقم الشيخ أبي صالح، اتصلت عليه وحدثته بما وجدت، فقال: لا عليك، أرسل موقعك عبر (الوت ساب) وسأزورك في الحادية عشرة صباحًا، ونصحني بالالتزام بالمعوذات، وعدم لمس تلك القطعة الجلدية.

وفي نفس الوقت المتفق عليه، حضر الشيخ لمنزلي، وطلب مني إحضار وعاء فيه ماء وملح خشن، ليقرأ آيات من القرآن الكريم، ويضع قطعة الجلد في الوعاء، ومن ثم بدأ بفك تلك القطعة الجلدية، وعند قراءة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ سورة البقرة الآية ١٠٢ أحسست باختناق وبكاء دون سبب، وغثيان وألم شديد في رأسي، وحرارة في بدني وبرودة في أطرافي، وأكمل فك تلك القطعة السوداء، نظرتُ بإمعَانٍ فوجدتُ بداخل الوعاء شعرًا، وقفلًا حديدًا يغطيه الصَّدأ، وأظافر، وورقة صغيرة مليئة بالرموز والعلامات، وأشياء لم أعهدها من قبل!

وبعد الانتهاء ابتسم في وجهي، ثم قال: أنت بخير الآن، فهذا السحر من الكبائر والموبقات السبع، وقد ابتلاك الله بهذا؛ ليخفف عنك ذنبًا، لذلك أحسن الظن بالله وتوكل عليه، فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك، فلو اجتمع الإنس والجن على أن يصيبوك بشيء فلا يمكن أن يصيبوك إلا بما قدره الله لك، أنصحك بالصلاة في وقتها، والزم التحصين.

فقلت: إن شاء الله، ولكن مَن فعل ذلك؟
قال: لا أعلم، والأهم أن السحر أُبطل بقدرة الله تعالى، ولا تنسَ أن الإنسان لا يرتفع إلا على أكتاف الابتلاء.

ينتهي اللقاء ... ويأتي الليل حاملًا على كتفيه السكون، وبين نجماته كثيرٌ من الحنين إلى أيام مضت ولن تعود، ليعيد ذكرياتكِ وحنينا لكِ لم ينته، فذكرياتكِ تبعث قيودها الموجعة، وتجعلني في مس، فيكون علاجي بتلك الأعشاب والخلطات، فيصبح لون جسدي أخضر مثلها، فلا يفيد الدواء وقتها. حصنت نفسي من ذكرياتكِ، حتى لا يتمطّى ظهر الحنين، ويطقطق الوجع أصابعه، وأتثاءب صبرًا، كسرت هذا السكون بالاستغفار؛ حتى لا يتمادى الشوق بالحضور، فإن الله ينادي على عباده في جوف الليل، ويقول لهم: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟

اللهم امسح دمع قلبي، وانزعها من قلبي لتكون نسيًا منسيًّا حتى اللقاء، ولتكن لي حينها بدون وداع، فالودائع عندك تحفظ ولا تضاع.

ربي لا تكسر قلبي، ولا تحرمني يا الله ممن أحببتهم، وتعلقت بهم روحي، اللهم إني أحبك وإن كنت أعصيك، اللهم لست بريئًا فأعتذر، ولا قويًّا فأنتصر، ولكن مغلوب على أمري ولا حول ولا قوة إلا بك.

اللقاء الثاني ...

١٥ سبتمبر ٩٢م

دائمًا أكره الغروب؛ لأني أراه تآمرًا على النور، فأنا وحدي وذلك الليل الدامس، في مساء اليوم الثالث، في تمام الساعة الثانية صباحًا، وأنا على مكتبي، وبين يدي مذكرتي وقلمي وقهوتي الصامدة، دغدغتني ذكرياتكِ لأكتب لكِ، وفي السطر الخامس غزل مشاكس وبدون مقدمات، فإذا ورقاتي تسود وتتطاير مثل الخفافيش، وتتعلق بقدميها في سقف غرفتي، وتحولت تلك الستارة إلى أشباح تتطاير وتضحك، وأسمع صوت قَهْقَهة، أنظر وأجد مرجانة متمددة على سريري، أصابني الخوف هربت وسقطت الأوراق عليَّ بشراسة، تجرحني وتدمي قدمي.

تُقفل النوافذ والأبواب وحدها، وتقول مرجانة: هَيْتَ لَكَ، تغار كلماتي من هذا الأمر غير الشرعي، وتقول لمرجانة: انتمائي له قديمًا فأنا أولى به منكِ، وما زالت كلماتي تترافع وتدافع عني؛ خوفًا من الوقوع في المحظور، وكأني حبيبها! وما زالت مرجانة تضحك بسخرية، وتقول لكلماتي: أنتِ مجرد كلمات على ورقات تعبث بكِ الرياح، وتأخذكِ حيث تشاء.

وأنا أنظر إليهما، وأقول في نفسي: أنا ملك حبيبتي الغائبة، جلستُ على الأرض، وبدأت أردد ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ سورة يس الآية٥٨ حتى سمعت صوت عواء كلب، ويفتح الباب ويقفل بشدة، وكأن مرجانة اختفت؛ خوفًا من حرقها، وتعود كلماتي منتصرة ومتعطرة ومتطايرة فرحًا فوق مذكرتي.

وهنا توقفت متسائلًا:

كيف لجماد وجان يتقاتلان لأجلي!

وأنتِ الأنيسة لقلبي تصبحين بلا مشاعر!

كيف أصبحتِ بهذا البرود؟

وأنا أعلم بأنني لست وحدي من يمتلك الأخطاء

ولكنني لم أعد أحتمل الأفكار التي تمر بخاطري نحوكِ

وفي نهاية المطاف أتأقلم تجاه كل شيء حولي لا رغبة مني

ولكن لشح الخيارات تجاهكِ

عزيزي القارئ ...

ستدرك ذات يوم أن جنونك لا قيمة له

بعد أن تصبح الأيام تشبه بعضها

وتكون قد أهدرتَ الكثير من وقتك في الشرح والإيضاح

فمشاعرك تصغر عندما تكبر

فلا تجعلها هباء منثورًا لمن لا يستحق

وبعد ساعة من الهدوء، تأتي العاصفة لتحرك الأشياء من حولي، ويُفتح التلفاز، وتُطفَأ الأنور وترتعش، وكأنها ترحب بضيف مجهول! تظهر مرجانة تارة وتختفي تارة أخرى، فأجدها حينًا في غرفتي، وحينًا في مكتبي، وحينًا في غرفة نومي، متلونة سريعة، خفيفة الظل، ليس لها أي ضرر سوى قلمي، فكلما أمسكتُ به لأكتب، أجدها تُطَير أحرفي من ورقاتي، وكأنها تُقسم عليَّ ألا أكتب في وجودها! حتى يأخذني التعب، أغفو لدقائق، فتشاكسني ساحبةً الغطاء الأبيض، وتهمس بأذني بتمتمات غير مفهومة! فأنظر إليها فتجذبني عيناها الزرقاوان، حيث تأخذني لعالم لا يشبه عالمي، كل شي به أزرق (السماء - الماء – الهواء) شي من الخيال ممزوجٌ بحقيقة بين الوعي واللاوعي، حتى أعود مذهولًا من تلك العينين وما تخفيهما، فعطرها ينتشر ويضرب أنسجة النفس، وهمسها لا يختفي يبني قصورًا وأنهارًا، أستعيذ بالله منها، وتختفى غاضبة، وماهي إلا دقائق حتى تعود، وأعيد الاستعاذة وتختفي وتعود، وفي كل مرة أتعوذ بالله منها تعود بصورة أقوى، وكأنها تتحداني ولا تهاجمني... قائلة: توقفْ فلستُ هنا لأذيتك، بل أرغب في قربك، فلا تبعدني بالاستعاذة وآيات القرآن ...

فأقول لها: أنا لا أحتاج قربكِ.
فتقول: أنا حقًّا أعلم باحتياجك، فلا تتجاهل ما تشعر به.
فأقول: عن أي شعور تتحدثين!

فتقول: عن شعور الوحدة والألم والقلب الذي لم يكتمل، عن كل لحظة رغبتَ بها في عناق ولم تجده، عن كل كلمة كتبتَها في ورقاتك؛ لتخبر مَن حولك أنك بخير، وأنت عكس ذلك، فلأكن عوضك واحتياجك، اكتفِ بي وسأكون لك كل ما تريد ... فأضعف للحظة، وأنظر لعينيها بتمعن، فأوجس بريبة مما تخفيه تلك العينان الزرقاوان من مكر وخداع وغدر، فلست أنا المراهق الذي تأخذه الشهوات، فأقعد مذْمُومًا مَّخْذُولًا، بل أنا رجل أربعيني تجرعت مرارة الحياة على أكواب، وتشبعت أطباق النزوات واكتفيت، فهل يعقل أن أكتفي بجنية؟ لقد أتيتِ المكان الخاطئ يا صغيرتي، هنا تغضب وتكسر قلمي، وتقول: اعلم جيدًا أَنَّ رغم كل التعويذات والتحصينات التي تفعلها، فنحن الجان لا نمرض ولا نصاب بحوادث إلا نادرًا. ولنا طاقة عجيبة في المقاومة، حتى عندما نحترق بنور القرآن، نعالج أنفسنا من تلك الحروقات خلال ثلاثة أيام، فنحن لا نزرع ولا نحصد ولا نبني بيوتًا ولا نشتري طعامًا ولا نطبخ ولا نحتاج إلى المال مثلكم، أما أنتم أيها البشر فتأكلون التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا، ونحن نعيش عالة عليكم، ونقوم بتضليلكم، ونشر الفواحش والأمراض بينكم، ونحب كل شيء لم يذكر اسم الله تعالى عليه، سواء أكان مأكلًا أو ملبسًا. مهاراتنا في تلبيس الحق بالباطل، وبما أن عالمنا أكبر من عالمكم فلنا ملوكٌ وممالك، ونتشكل بأشكال ما شئنا، ولنا قدرة على سرعة الحركة كسرعة الضوء، فلا تعبث معي، ثم تفتح النافذة وترحل غاضبة

انكمشتُ حينها مثل الأرنب، وكل ما فيّ يقطر خوفًا وحيرةً، وقلتُ في نفسي: هيهاتَ هيهاتَ لما توعَدون، جلستُ وقلبي وكبريائي نلملم ما تبقى من أمل رجوع تلك الورقات، والحقيقة كنا نعزّي بعضنا بعضًا على غيابكِ، قائلًا لهما انتظرا إنِّي معكما من المُنْتظرِين.

- أين ميزان العدل الذي تبنَّى قرارِكِ بالرحيل عني؟
- لماذا تحوّل حبكِ لي إلى إثمٍ تتبرئين منه؟

ما زلتُ أتلمس طريقي في دجى غروركِ رغم تعثر خطواتي، ما زلت أحمل ابتسامةً مراهقةٍ كانت آمالها أوسع من الكون. كم كنت أشعر بالغرور والفخامة كلما تذكرت أن لدي حبيبةً مثلكِ! كم كنتِ عقيمة بلا مروءة حين جعلتِني رجلًا وحيدًا غير قابل لإعادة الاستخدام! ولا أصلح لباقي النساء! ولا أصلح لجنية تمتلك القدرات! تبًّا لإصراري الذي جعلني أتسلق أبواب الأمنيات وأنتظركِ، وقلبي الغبي يفتح نافذته، ويقول: اقترب موعد حضوركِ، وانشق القمر، كم كنتُ ساذجًا حين صدقته! وكأني أقسمتُ أن أحفظ حبكِ في الترائب، فأصبتُ بداء الأرق، وأَنِسْتُ صفير البلابل، فكنت هلوفًا وأبتر وأثكل من بعدكِ، وأصبحتُ على شفا جُرُفٍ هارٍ.

- تبًّا لقلب لا يألَف غيركِ!
- أكان حبكِ من القداسة حتى يبطل كل تعلُّقٍ لي بالنساء؟

قلبي اللاهث ...

كم كنتَ عابثًا حين تماديتَ في انكساري، تأتي كل مساءً بذكرياتها وطيفها وزجاجة من الخمر وتثمل في صدري، وتخرب ترتيب ضلوعي، كم هي كريهة رائحة اليأس والضياع والانكسار!

حبيبتي الغائبة ...

عز عليَّ أني رأيتكِ بعين مختلفة، وبقلب محب، ومشيت إليكِ بكل يقين، وفي المقابل استمرأتِ فراقي ورحلتِ .

تُرى من ذا الذي كان ناصحًا لكِ بالفراق؟! وكيف لكِ أن تثقي به وتتخذي قرارًا مصيريًّا في علاقة تجمعنا معًا؟ فمن باب العدل كان لابد أن نتخذه سويًّا، وألاَّ تسمعي واشيًا ليصنع أدوات فراقنا، فليس كل واشٍ صادقًا محبًّا، حتى إبليس ارتدى ثياب النصح سابقًا، وأخرج آدم من جنة السماء إلى الأرض.

فـفي ملـحمةِ الفـوضى

تُرفع أبواقُ المعركة لتجنِّد

جـيوشَ الحب الهـائمة وجيوشَ الكبرياء المُتعالية

ليتعَاركا في قـرارٍ مصيريٍّ ليقضي أحدُهـما على الآخر

الحبُ والكبرياءُ إن تعايشا معًا سيقتلُ أحدُهما الآخر

لا – لن – لم تحبك ...

بعد رحيلكِ، وعند مرافعة الضمير منذ سنين، وبين قضبان الحديد، أجلد نفسي بأسواط الحنين، عندما أسقطتِ نجمي وأدرتِ الوقت لماضٍ جمعنا من سنين، وتأتي الحقيقة كمحامٍ فطين أمين، يطرق أبواب المحكمة بيقين لفتح القضية من جديد، وتفتح الجلسة بحضور الشهود البالغين، ليقسم الشهود برب العالمين، كان الخطأ مشتركًا بينكم ونحن لصادقون، أنتَ من أهملتها، وهي لم تحبك، فلو أحبتك لما رحلتْ وبقيتْ كالقرين، وجلسة تلو جلسة حتى أبريل المسكين، وكان النطق بالحكم المبين، إطلاق سراحي من قيدكِ اللعين، والاكتفاء بالمدة السابقة، فخرجت كعجوز رزين.

يا كذبة أبريل، وغدر تشرين، وكدر السنين، أكتب لكِ بعدما أخذت نصيبي من الوجع والأنين. إن الجزاء من جنس العمل أتدرين؟ إن الله أحكم الحاكمين.

آخر ورقة كتبتها في هذه الورقات، وهذا الكتاب، وهذا الوجع، فسلامًا على من أبعد نفسه بنفسه.

شكرًا ...

وما بين صراع المحاولة في الإبقاء على ذاتي، ولملمة ما سقط منّي في محاولة يائسة للسيطرة، إلا أني أشكركِ لجعلي أتألم دون وعي، وشكرًا لأنكِ اخترتِ فراقي بأرخص الطرق.

استنزاف ...

لا تستهلكْ جميع مواردك في أرض لا تنجب، في أرض بور لتخسر وقتك وجهدك وطاقتك، وأنت تستمر بالمحاولة بلا طائل تناله، بينما يمكنك استبدالها بأرض خصبة معطاءة ستكرمك بقدر كرمك، وتعطيك بقدر عطائك، وستنال ثمارها وخيراتها بصبر يستحق وكفاح مردود، لا تجامل على حساب نفسك.

ولا تضيع وقتك فيما لا يفيد؛ بغية التودد، ولا أقصد بذلك الإساءة، ولكن ابحث عن ذاتك، ولْتعلم أن حاجات الناس لا تنتهي، فانتقِ جيداً أفضلها في الدنيا والآخرة. فالوقت يمضي، فلا تبدده في توافه الأمور والمجاملة على حساب نفسك. واخترْ بعناية ما تستحقه دون أن تجتهد فيما لا يستحق.

اللقاء الثالث ...

٢٤ سبتمبر ٢٠٢١م

حالة الفوضى ما زالت تتلبسني، أفكاري مشوشة، والنوم شحيح، وضعتُ رأسي على وسادتي الفارغة وأخذتني ذكرياتكِ بملابس العيد حين تأتين قبل صلاة العيد، تقولين لي: هل الفستان جميل؟ فأقول لكِ: نعم، وكأنكِ أميرة النساء بهذا الفستان، ولم تعلم أنها هي من تزيد ملابسها جمالًا، وتجعل العيد عيدًا بوجودها.

وما زلتُ أنظر إليكِ كلوحة الموناليزا ارتسمت بالشوق والحنين، أتأملكِ وكأنكِ كل ما أرى، وبين كلماتي حنين إليكِ لا تعلمينه، منكِ وإليكِ أميل وأتمني، أنتِ بعيدة تمامًا عنّي وأنا ما زلت بقربكِ، ولكن بطريقة أخرى، أحبكِ بمقدار هذا البعد؛ وأبعد من مشرقي ومغربي، حاولت كثيرًا أن أستقيم، ولكن تغويني تلك الذكريات وفوح عطركِ. من كتابي أبجديات الأناقة

فالحب وُجد ليُسعدنا

فنحن أكثر من يعلم بعدد المرات التي تعثّرنا بها لنصل

ونحن أكثر مَن مارس الأمنيات، وجدد المآرب التي يبحث عنها

ونحن أكثر من يعلم عن الأشياء التي كنا نستميت في سبيل امتلاكها

فلنبقَ معًا ... فبقاؤنا اعتناء بأنفسنا ورحمة بحالنا

وأنا بين الذكريات المشاكسة رأيتُ على زاوية سريري رجلًا قصير القامة، مبتور القدم، جبهته عريضة، مشروم الأنف، ذا قرنين، صوته يخرج من أنفه، ذا رائحة كريهة، ينظر إليّ بعينيه التي ترمي بشرر كالقصر، يصفع وجهي ويقول: ماذا فعلتَ بحبيبتي؟

فقلتُ له: من حبيبتُك؟ ومن أنتَ؟
فقال: أنا مغرف خطيب مرجانة!

ثم قام بحملي نحو سقف الغرفة ومن ثم أطاح بي أرضًا، وصفع وجهي بقبضة يده القوية، وأمسك شعر رأسي بشدة، ووجَّه لكمات سريعة على أنفي، وصرخ بصوت عالٍ بتمتمات غير مفهومة، حاولتُ أن أدافع عن نفسي، ولكن ضرباتي وركلاتي تغدو فارغة، ففي حقيقة الأمر أن هذا العراك غير متكافئ، ثم وضعني على زاوية السرير وصعد فوق صدري وخنقني صائحًا: اترك مرجانة، ثم رحل ...

تركني في حالة من الرعب والذهول، عقل الخوف لساني، غاب صوتي، شفتاي تضرب بعضها، ويداي ترتجفان، وينزف الدم من وجهي بغزارة، تسمّرت في مكاني، أصبحت ساقاي غير قادرتين على حملي؛ فكل عضو عندي حافل بكدمات لا تطاق، وكل وريدٍ عندي محشوٌ بخوف لا يطاق، ولا حول لي ولا قوة.

أقعدتني آلامي وهمومي دقائق، حتى دخلت دورة المياه، فتحتُ الإنارة فسمعتُ شيئًا يطير ويضرب رأسي، خرجتُ حينها متوترًا، وسألتُ نفسي ما هذا؟ عدتُ مرة أخرى أنظر فإذا حمامة سوداء لا تبشر بخير، استعذتُ بالله منها، وتوضأت، وصليت ركعتين، وحصنتُ نفسي منهما، ووجدتُ نفسي باكيًا شاكيًا لله تعالى حتى هدأتْ نفسي، ولكن جسمي مليء بالآثار والكدمات.

هذا الموقف جعلني أكره نفسي، وضعتُ يديَّ على رأسي ودموعي تسقط وحدها، أحسستُ بيدٍ ناعمة تمسح على رأسي، نظرتُ فوجدتُ مرجانة تبتسم وتمسح دموعي، ومن ثم رحلتْ.

كم أنتِ جميلة في أشـياء لا يمكـن أن تُـرى!
كم أنتِ جميلة بحضوركِ والأحلام والرُؤى!

وضعتُ رأسي على وسادتي مرة أخرى لأنام، فإذا بي أسمع الباب يُطرق ثلاثًا، لم أكن أرغب حقًّا في رؤية الطارق أو من يكون، حتى زاد الطَّرق على الباب فنهضتُ بخطوات متثاقلة نحو الباب لأفتحه ولم أجد أحدًا! عدتُ لسريري الذي تحول لعلبة كبريت تحرق استقراري وأحلامي بكِ، فإذا الباب يطرق مرة أخرى فناديت بصوت عالٍ: من الطارق؟

فتجيب: أنا، افتح الباب.
فأقول: من أنتِ؟

يعم الهدوء المكان، فما من مجيب، ترددتُ كثيرًا حتى استجمعتُ قواي لأفتح الباب متعللًا، فلربما هي تلك الآسرة قد اشتاقت وعادت لزيارتي! ولكن لا يوجد أحدٌ! إذًا مَن الطارق؟

قفلتُ الباب محتارًا حتى نظرت من تحت الباب خلسة فوجدتُ خطوات متسارعة قادمة نحو الباب، ولكنها لم تطرق بل انحنتْ لتراني، فشهقتُ بفزع، وعدتُ هاربًا نحو سريري مرتبكًا والخوف يتلبسني، حتى انتظرت قليلًا لأهدأ، ويعم الهدوء المكان، لا صوت ولا إزعاج، اقتربت متسللًا نحو الباب وانحنيتُ بهدوء لأعيد النظر من تحته فلم أجد أحدًا؟ كانت ليلة عجوز في الثمانين من عمرها تمر ساعاتها بتثاقل وبطء، حتى نمتُ بعد عناء من شدة التعب.

وما هي إلا دقائق واستيقظتُ على صوت صراخ وبكاء شخص ما بجانبي! صوتٌ عالٍ يشق السكون، انتابني الذهول والخوف، لم يترك لي ذرة عقل لتحليل الموقف، انطلقتُ نحو الباب والحلول تسقط مني بالكامل، حينها تمنيت أن تعود حياتي كما كانت، وأكتفي بكِ حزنًا.

وما زالت خطواتي هنا وهناك، حتى وصلت لمكتبي المظلم الذي استباح فوضى الأوراق عليه، وتمدد الغبار فوقه، فولد القلق في أدراجه المغلقة، ليصبح الأمل كوجه عجوزٍ محفور بالزمن، مضروب بالخيبات، يرفع رأسه ببطء، ويزم عينه، وينام دهرًا ويموت.

وقبل فتح الإنارة صرختُ لا شعوريًّا، فقد لمحتُ ظل شخص يقف بركن مكتبي، هربتُ بسرعة إلى غرفتي وقفلتُ الباب، أخذتُ أفكر ماذا أفعل؟ لم يطل تفكيري؛ لأني سمعتُ خطوات سريعة، وإذا بباب منزلي يفتح، ويقفل بشدة!

ينادي والدي حينها من خلف الباب: هل أنتَ بخير؟ فتحتُ الباب وارتميتُ بين أحضانه باكيًا شاكيًا كطفلٍ مضروب، فتحت عيناي فلم أجد أحدًا. والغريب في الأمر أن والدي متوفى منذ عشرة أعوام، انخرطتُ في البكاء بسبب هشاشة حالتي النفسية، وحاجتي لأبي الآن لأسأل نفسي: ما الذي فعلتُه ليحدث لي هذا؟

فأنا رجلٌ أمشي بقرب الحائط مسالمًا، أنصاع لجميع القوانين دون اعتراض، يومي بسيط لا مغامرات، لا أوذي أحدًا، أستيقظ في الصباح الباكر، أغسل وجهي، أصلي، أحصن نفسي، أمضغ فطوري المعتاد، أحضر جلساتي القضائية، أغرق بين ورقاتي عند المساء، فلا أمنيات غير رجوعكِ الذي أصبح أبعد من مشرقي ومغربي، حياة عادية ولكني راضٍ عنها.

خمسة عشر عامًا مبعثرةٌ أجزائي
ألملم أحزاني في كتبي وورقاتي
مجاهدًا صبري وكبريائي وإيماني
مكسورة عند شاطئكِ صدفاتي
وموجكِ العابث يمضغ آمالي

أكتب هذه الصفحة، وكأني غريق في مستنقع ماء مظلم يحاصرني، والحقيقة أنها موجودة طوال الوقت معي، مختبئة في قلبي وبين شراييني، وكل مساءٍ تندفع مياهه في صمت مزعج تقشعر كل خلايا جسدي، أغرق في ذلك المستنقع الجارف، أحاول أتنفس، أحاول الوصول إلى منفذ ما عند سطح الأمان، أكافح، ولكن الهواء الذي يلفح حين أتنفس يلسع حنجرتي، ولا أستطيع الكلام فأعبر عَمَّا أشعر به في ورقات وقلم.

وكم تمنعتْ كلماتي عن الحضور، وتطايرتْ أمامي منزعجة من تلك الأفكار المتدهورة، والخوف من مرجانة، أحاول أن أعيد ذلك الاستقرار لأتمكن من الكتابة، وإذما تعدْ وأبدأ الكتابة تهربْ خوفًا من جديد، أبتسم بائسًا قائلًا لها: كم أرهقتِني شهورًا وأنا عليكِ، ولكن بدون تخصيب أيتها العقيمة.

ساعات وأنا على هذ الغثيان، حتى صليت لله ودعوته بما في قلبي، ووجدت تلك الكلمات المتطايرة متعطرة فوق مذكرتي، وكأنها منتظرة اللقاح، داهمني الشعور أن أدخل بتلك الورقات، فبدأت بإحداهن، وفي السطر الثاني قلمي لا يقذف حبرًا، فقد أُهلك من كثرة اغتصاب تلك الورقات، ومن بصيص الأمل الذي لا يتحقق. رغبات وأمنيات ومشاعر لا تنتهي ولكنني مازلت صامدًا هادئًا كمدينة على خارطة تجوب شوارعها انتفاضات وطغيان وحروب. بقيت وحدي أصارع الحنين والشوق، نعم أيتها الآسرة فقد ودعني كل شيء بعدكِ، أنتِ أتقنتِ الغياب، وأنا أتقنتُ الحنين.

هل تعلمين معنى أن ينتظركِ شخصٌ ما

فيراهن شمعته التي أشعلها منذ أن بدأ بانتظاركِ

بأنها لن تدمع قبل حضوركِ

لتظل هذه الشمعة تدمع وتدمع

حتى قاربت الغرق في نفسها، ولم تكن الشمعة وحدها من

سكبت دموعها

أفكاري متدهورة، والملل يعانقني، والوحدة تخبطني، نظرت من النافذة، لا يوجد أحدٌ، كل شي ساكن كالموت، لا إشارة لوجود أحدٍ في الخارج، حتى الطيور تبدو محجمة عن تغاريدها الصباحية المألوفة، فالوقت مازال باكرًا، وساعة (إيكيا) تشير إلى السادسة صباحًا.

وبينما أتأمل المشاهدة الفارغة، فُتح باب غرفتي بهدوء، ومن ثم قُفل، فقلت: يا أهل المنزل بيني وبينكم عهد الله دعوني وشأني، فإذا الباب يفتح بقوة، وتركض طفلة صغيرة إلى ركن الغرفة دون ملامح، وشعرها غجري، وطولها لا يتجاوز المتر، انتابني الخوف، تنظر لي وأنظر إليها، خائفًا أدّعي الصلابة، قرأت آية الكرسي، فأصدرت صوتًا حادًا من صدرها حتى انتهيتُ من القراءة، ثم ركضت نحو السرير ونطّت عليه نطيطًا، حتى أذّنت بصوت عالٍ فبكت بصوت حاد، وتمتمت بكلمات غير مفهومه، لم أفهم منها شيئًا سوى كلمة أكرهك، وتهرب ...

ابتلعتُ خوفي، وخرجتُ أبحث عنها في أرجاء منزلي لا أثر لها! غير أواني المطبخ مكسرة على الأرض، وباب الثلاجة مفتوح، اتصلت بصديقي عوض وطلبتُ منه الحضور، وبعد ساعة حضر في منزلي وحكيتُ له هذا الحدث فلم يصدقني حتى رأى أواني المطبخ مكسورة! فقال: أتوقع أن هذا النوع قبيلة من الجن والشياطين، يسمى (الغيلان) التي يستطيع الإنسان رؤيتها بشكلٍ أو بآخر، وتستطيع التشكل على الهيئة التي تريدها، وهذه القبيلة موجودة من عهد الرسول ﷺ وسميت غولاً، لأنها تغتال الناس أي تهلكهم، وعرف عن الغول التلون في صورتها وثيابها، فهي في بعض صورها كالإنسان إلاّ رجليها، فإنهما رِجْلا حمار. هذا ما حكى به جدي، والله أعلم ...

تبًّا لباب منزلي العجوز الذي يُفتح من غير استئذان، ليدخل فاجرٌ يعبث، ومن ثم يخرج، وتبقي أركان منزلي حُبلى تلد خوفًا وأصواتًا تنادي من وراءِ الْحُجُراتِ.

- هل تعلمين أيتها الآسرة كيف تآمرت الأشياء عليّ بعد رحيلكِ؟
- أليس الزمن الذي انتظرته كافيًا؟

كم كنتُ ساذجًا حين زرعتُ حبكِ في قلبي، واستمرأت سقياكِ، لينمو حبكِ ويؤلم أضلاعي، ويدمر حياتي. فتتركيني بين كتاباتي، ألوم نفسي ألف مرة على رحيلكِ دون أن تهتمي، فتنتفضُ جراحي، فأبحث عنكِ حاملًا شعلةَ أملٍ، وأكتب لك ورقات لعلكِ تحسنين قراءتها.

اللـقاء الرابع ...

٣ يناير ٢٠٢٢م

وبعد أشهر وجدت رسالة على مكتبي، كثيرة الطلاسم غير مفهومة، مكتوبة بالمعكوس وباللون الأحمر، على ورقة معطوبة الأطراف، مكتوب فيها التالي:

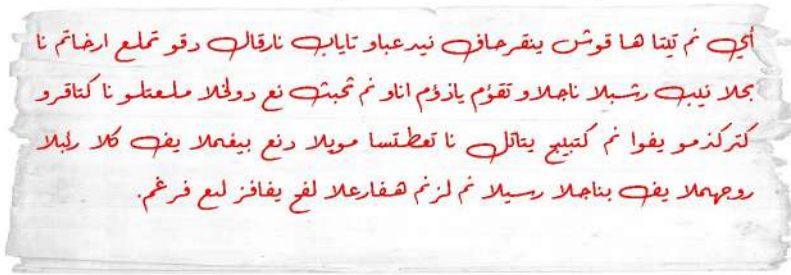

ولك الترجمة:

يا من أتيتُ له شوقًا فأحرقني وأبعدني بآيات القرآن، وقد علمتُ متأخرًا أن الحب بين البشر والجان مؤقتٌ ومؤذٍ، وأنا من يبحث عن الخلود، اعلم أن ورقاتك ومذكرتك أوفى من حبيبتك.

وأتِ إن استطعت اليوم عند المغيب في ذلك البئر المهجور في الجانب الأيسر من منزل العرافة لتشهد حفل زفافي على مغرف.

أفكارٌ كثيفة تقطن دهاليزي الداخلية، والأشياء الغامضة محطة فضول دون اتجاه ... اتصلتُ على أحد أصدقائي، وكان مهووسًا بالعالم الآخر، سألته عن زواج الجن؟ وما علاقتهم بالبشر؟

فأجاب: الجن يتناكحون ويتناسلون، ولهم ذرية لقوله تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ سورة الكهف الآية ٥٠ والشيطان قبيح الصورة، وقد أعطي الله الشياطين قدرة لم يعطها للبشر، ومنها سرعة الحركة والانتقال، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، وقد يُسلط على المؤمنين بسبب ذنوبهم وبعدهم عن الله.

فالعداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور، ولا يمكن أن ينتهي إلا بانتهاء الحياة، ويعود تاريخه إلى اليوم الذي شكل الله فيه سيدنا آدم عليه السلام، فقد عزم على أن يعادي آدم، وآدم لم تنفخ فيه الروح بعد، لأن الله عندما خلق آدم تركه ولم ينفخ فيه الروح، فأخذ (يُطيف به الشيطان ويقول: لئن سلطت علي لأعصينك، ولئن سلطت عليك لأهلكنك) صحيح مسلم إن الشيطان يأمر بكل شر، ويحث عليه، وينهى عن كل خير، ويخوف منه؛ كي ترتكب الأول وتترك الثاني، وقد أخذ الشيطان من الحق عز وجل إذنًا بحرية العمل والحركة؛ في سبيل تنفيذ مخططاته، وإغواء الغافلين والضعفاء.

ثم قال: دعني أحكي لك قصة أخي أحمد البالغ من العمر عشرة أعوام، ولد أحمد وبسبب نقص الأكسجين عند ولادته حدث له ضمور في بعض خلايا المخ، فأصبح حتى حينه عاجزًا عقلًا وبدنًا، طريح الفراش، يحبو كالأطفال، لا يتكلم إلا بلغة الإشارة، وبعض من التمتمات غير المفهومة، وقد تولت رعايته جنية تسمى أم الصبيان، وكانت ترعى أخي في منزلنا مع أطفالها الثلاثة ميمون ووليد وحام.

بداية كنا نلاحظ أن أخي يلعب ويضحك مع أحدٍ، حتى تطور الأمر لنرى أطفالًا بعمره يلعبون معه، ويختفون حال حضورنا الغرفة، وأحيانًا نجد لدى أخي بعض الحلوى، ونسمع أصواتًا، وعند الحضور لا نجد أحدًا غير أخي ينظر في سقف الغرفة ويبتسم! ونلاحظ اختفاء بعض الأشياء من المنزل أو انتقال هذه الأشياء من أماكنها إلى أماكن أخرى، وصرير الأبواب المفتوحة، أو استماع صوتها تفتح وتغلق وهي مغلقة، بدون وجود سبب أو تفسير لهذه الأحداث.

وفي أحد الأيام أصيب أحمد بوعكة صحية مليئة بالتشنجات؛ مما جعله يمكث في أحضان المشفى خمسة أيام، وكانت والدتي مرافقة له، وعند كل غروب كانت تلاحظ فصل الأجهزة الطبية وفصل المغذي عنه فتأتي الممرضة، وتعيد ما فصل من أسلاك الأجهزة والمغذي، حتى نطق أحمد قائلًا: اتعبتموني! ويبكي طوال تلك الليلة.

وفي اليوم الثالث بعد انتهاء الزيارة في تمام الساعة العاشرة مساءً تحكي والدتي أن امرأة عجوز غريبة الأطوار، شكلها غريب ومخيف، دخلت الغرفة وقامت بفصل المغذي، فرأتها الممرضة وقامت بدفع العجوز وتوصيل المغذي، إلا أن العجوز قامت بصفعها على وجهها حتى التوى فمها، وسقطت مغشية على الأرض، ومن ثم صرخت العجوز في وجهي وقالت: أخرجي ولدي من المشفى الآن.

اتصلت والدتي تبكي خوفًا مما حدث، حضرنا المشفى وقامت الإدارة بالتحقيق في ضرب الممرضة، وراجعوا كاميرات المراقبة واتضح لهم دخول العجوز الغرفة بعد انتهاء الزيارة! وفصل الأجهزة وضرب الممرضة.

أحضر والدي في صباح اليوم التالي شيخًا مختصًا بالرقية الشرعية، وقام الشيخ بقراءة بعض من آيات القرآن الكريم، وحينها تغير صوت أخي لصوت امرأة عجوز تنطق وتقول: دعوا ابني ...

فقال الشيخ كيف ابنك وهو من الإنس؟!

فقالت: منذ ولادته وحتى حينه كنت مسئولة عنه في تربيته مع أولادي الثلاثة، وأولادي إخوان له، فأكمل الشيخ قراءة الرقية وسمعنا بكاء وصراخ المرأة العجوز لا يتوقف، وتمتمت بكلمات غير مفهومة، وبصقت على وجه الشيخ، ورمت ما حولها، وبعد ساعة اعتذر الشيخ عن القراءة دون سبب وانتهى الأمر.

وحتى حينه لا نستطيع إحضار أي شيخ لرقية أخي أحمد في منزلنا، وكلما حددنا موعدًا للرقية تأجل، أو أحد من أفراد الأسرة يمرض، أو تحدث مشكلة عائلية، أو نصاب بحادث مروري، وينتهي حينها الاتصال بيننا، وأسأل الله أن يشفيه شفاءً لا يغادر سقما.

تمزقت السماء وكأنها بِكْر في ليلتها الأولى، ويأتي الصباح على عجل، وأطرق باب العرافة وأسألها عن مغرف، فتقول لي: لماذا تسأل عن هذا اللعين؟ ابتلعتُ حينها فضولي، وقلتُ: لا شيء، فقط أريد أن أعرف من هو؟

فقالت: مغرف ابن العفريت زغرف، وهو أخبث أبنائه، بشع المنظر، وجهه مشوه، أبتر القدم، عفريت متمرس في خدمة المشعوذين والكهنة وعبدة إبليس، يعيش في الجبال، ولا يبالي أحدًا، أكبر من مرجانة بستة وخمسين عامًا. إياك والتهور والعبث معه؛ حتى لا يقضي عليك.

قلت لها: لا عليك، وشكرًا، وأعتذر عن إزعاجكِ، رحلتُ وكثيرٌ من الاستفهامات تسقط خلفي، والحيرة تتمدد في كمرضٍ جلدي قبيح، وفي طريق رجوعي وجدتُ مغرفًا ممتدًا على بطنه على إحدى حاويات النفايات، ينظر لي بنظرات الخبث والسخرية، وينتف رموشه، حافظت على هدوئي وأكملت طريقي كأن لم يكن.

وعند وصولي للكافيه المعتاد استوقفني الأمر: هل أنا ملموس، أو مسحور، أو مصاب بعين؟! وفي يقيني الداخل أن أمري وأقداري عند الله، وأنا لم أترك صلاتي وتحصيني ليصيبني عبث جان! ثم يأتي كوب القهوة بعد دقائق، وأنظر بداخله لأجد صورة مغرف، فأترك الكوب وأخرج دون احتساه؛ خوفًا أن يسكن معدتي.

غادرت الشمس على استحياء وخجل، ويأتي المساء حاملًا على كتفيه السكون، وتلك النجمات اللامعة الكثيرة الفضول تفتح باب التساؤلات!

السؤال الأول

لماذا وصفتْ مرجانة أوراقي بالخيانة، ثم وصفتْها بالوفاء؟

الأوراق روح من لا روح له، صامدة دون عتاب، أسجل عليها الماضي وأشيد حاضري، هي بريد القلب، شاهدة على المعارك التي أخوضها لأقاتل غروري ونفسي، وأضيء عثراتي بكلمات أحررها لغيري؛ لذلك هي وفيّة تسمح لي بالكتابة عليها ولا تبخل على الجميع بالقراءة.

السؤال الثاني

لماذا خانتْ مرجانة مغرفًا؟

- هل كان مغرف فرعونيَّ الطبع لتفر منه إليّ؟
- أم كان جمالي كجمال يوسف لأثير غريزتها؟
- أم كان حزني كحزن يعقوب لتشفق بحالي؟

السؤال الثالث

- أ صدفة كانت أم أمرًا مخططًا له؟

مازلت أتساءل: كيف لي أن أتبع خطوات الشيطان في أول ضعف لي لأنجرف وراء العرافة دون أن أفكر قليلًا.

- هل ساقتني العاطفة نحو أي بصيص أمل يعيدكِ لي ولو كان كفرًا؟
- هل كنتُ ضعيفًا ومحطمًا لألبس سرابيل الهم والحزن وأنزع روح الإيمان لأتعثر بخطى لا تشبهني؟

ومازلتُ أجلد ذاتي بتنمر لا يليق بي؛ فلربما اللوم واقع المصير الذي أُلت إليه!

لعلكِ المقصودة أيتها الآسرة ...

أنتِ من استدعيتِ الضوضاء بين ورقاتي ومذكرتي وقلمي لتصبح حياتي عارمة بالفوضى.

أنتِ من جعلتِني أطرق أبواب العرافات فتعجب بي جنية وتدعوني للرذيلة.

أنتِ من جعلتِ أبتر القدم يصفعني ويصفني بالخائن، وسمحتِ لمتملق يعبث بي؛ فأصبح حديثًا يُحكى في الطرقات.

أنتِ من جعلتِني كتلة من الحزن والصمت فأجيد الانعزال، وأفقد عزيمة التغيير.

أنتِ من رفعتُ بكِ سقف توقعاتي لكنكِ تخذليني وتباغتيني بطعنات تلو أخرى.

أنتِ من أفقدتني شهية التمني فأصبح عاجز الخطوات نحو السعادة والأمنيات.

"فصبرًا جميلًا والله المستعان"

نصيحة ...

اترك المجادلات العقيمة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، ولا تظن أنك خسرت شيئًا عندما تغافلتَ عن زلة أحدهم، عندما قابلتَ الإساءة بالصمت والإحسان، فالصمتُ حكمة والإحسان رفعة.

ولا تهتم بالخسارات إن كان مكسبك الوحيد نفسك، وتذكر أنَّ عند الله تجتمع الخصوم، ولا حق يسقط، فكن مطمئنًا تجاه العدالة الإلهية.

الجن أيضًا لديهم شعوب وقبائل، وعالمهم كعالمنا دول
وملوك وديانات ...

عرافتي ...

أيتها المرأة ذات الشعر الغجري واللباس الأثري - عرافتي -

أخبريني!

هل تحبني؟

هل تفكر في؟

هل ستعود؟

أصبح الحب كذبة، والتنجيم لا يختلف كثيرًا عنه، بضع كلماتٍ تسعدك، وأمل لمن لا أمل له، إياك أن تصدقهما، فالحب بداية جميلة لمعاناة قادمة.

في هذا المساء ...

التطفل والمعرفة عن الشياطين داء عضال، ومرض فتاك، قد تكون البداية الأولى بذوراً منثورة، لكنها تصبح أشواكًا جارحة، لذلك احذر منه، وتعلم من الورقات القادمة؛ حتى لا تقع في الأذى.

إن أكثر ما كنت أخشاه يومًا أن أكون وحيدًا، فالوحدة ليست فقط العزلة عن الناس، بل هي غربة في وسط أهلك وأحبابك، هذا ما كنتُ أشعر به دونكِ منذ أعوام مغتربًا، فلا مفر ولا مستقر، فراغٌ مقيت لا نهاية له ...

وفي شدة انعزالي طرأ طارئ بذهني، وتمكن الفضول مني لحضور حفل زفاف مرجانة، فأستعد للحضور بعد قراءة المعوذات سبعًا، واستودعتُ الله نفسي، وعند الساعة الثانية عشرة مساءً، ذهبت نحو حفل الزفاف، كان الطريق مظلمًا كثيرًا بعد أن انقطعت الإضاءة من أعمدة الإنارة الموجودة في الطريق، والليلة لم تكن مقمرة، مما جعل السماء مظلمة متشائمة.

وقبل الوصول بكيلو متر رأيت معالم الحفل، والنار تشتعل، سمعت قروع الطبول، ولكن لا أرى الحضور، أوقفت السيارة وترجلت نحو الحفل بخطوات متثاقلة، لأستوعب حينها أن فضولي للحضور كان غير صائب، وخوفي أكبر من شجاعتي، توقفتُ حينها وفي يدي قلمي (مونت بلانك) أفكر بالرجوع إلى منزلي ...

وعلى حين غرة ضربتْ يد صلبة على كتفي بشدة! نظرت فوجدت رجلًا ضخم الجثة مطموس الملامح، ذا قرن، يرتدي اللون الأسود، ينظر إليّ بنظرات مخيفة انتابني وجل وجَزَع. سألني: من أنتَ؟ وماذا تفعل هنا؟ تلعثمت ولا أعلم ماذا أقول ...

تأتي حينها امرأة حدباء الظهر، قصيرة القامة، بدينة كئيبة، تفوح منها رائحة نتنة، ذات عين واحدة تتكئ على عصا خشبية متهاترة، وتقول له: زان يبحث عنك.

يتركني ويغادر مع تلك المرأة الحدباء، مشيت خلفهما من بعيد، ونظرت إليهما فوجدت أقدامهما أقدام ماعز، يصدر منها أصوات الخلاخيل، وما هي إلا لحظات حتى اختفيا، ووجدتُ نفسي بين قطط سوداء على يميني، وآخرين بأقدام ماعز يرقصون على روث البهائم، ورائحة القذارة تفوح منهم.

وبعد دقائق تتوقف الطبول، ويقف الراقصون من تمتمتهم المزعجة، ويدخل مغرف وبيده عروسه مرجانة، وبعد جلوسهما على حافة البئر، قام مغرف بأخذ غراب أسود، ومزقه بأنيابه الحادة، حتى سال الدم على الأرض، وصفق الحضور فرحًا، وقرعت الطبول من جديد، ورقص الجميع بجنون، وكأنهم في عراك.

حينها شعرت أن يدًا خفية تدفعني للذهاب إلى ساحة الطبول، وإذا بأحد الراقصين يصرخ ويسقط على الأرض، ويتمرغ في التراب، وفي حالة تصلّب جسدي، ورعشة قوية، والزبد يخرج من فمه، ويشد شعره بقوة، فيزداد الرقص عنفًا، وتزيد إيقاعات الطبول، ويكثر الصراخ بينهم، ويسقط واحدٌ تلو الآخر على الأرض، ويصرخون بصوت عالٍ، ويضحك مغرف بشدة. والحقيقة أن ذلك المنظر كان يثير في النفس الرهبة، وأخذت أرتعش من شدّة الخوف.

وتراني مرجانة، وتشير لي بيدها للخروج من هذا الحفل، فأسرق خطواتي مذعورًا نحو سيارتي، وأنطلق بأقصى سرعة بعيدًا عن الحفل، سمعتُ صوتًا خلفي، فأسرعت إلا أن الصوت كان يقترب مني!

وقفتُ وحملقت فوجدت شبحًا عملاقًا، له قرنان طويلان، يمتدان خلف رأسه على شكل قوس، عيناه حمراوان كبيرتان تميلان بزاوية في اتجاه الأنف تشبهان عيني الماعز، مشوه الوجه، بشع المنظر، يحمل في يده فأسين، يسحبهما من ثقلهما تصدران صريرًا مقلقًا ومزعجًا عند احتكاكهما بالأرض، واصلت مسرعًا نحو سيارتي، حتى تمكنتُ من الهروب.

وصلتُ إلى منزلي، ذهبتُ مباشرة إلى دورة المياه، فتحتُ صنبور الاستحمام، واندفعتُ تحت المياه المنهمرة، واندفعتْ معي كثير من الأفكار والتساؤلات المحيرة، فكل ما يحدث لي استثنائي، ولم يكن أمرًا عاديًّا! تأملتُ وجهي في المرآة متسائلًا:

- ما الذي يحدث لي؟
- أحلم هو أم حقيقة؟

وفي يقيني أنَّ ما رأيته لم يكن خيالًا، فلست ذا خيالٍ جامح لتساورني تلك المناظر بذلك الرعب، وتلك الروائح الكريهة، وجدتُ نفسي في المرآة مختلفًا لا أشبهني! فوجهي ثابت لا يبتسم، حتى ابتعدتُ عن المرآة مفزعًا، أعود وأنظر ببطء فأجد انعكاسًا طبيعيًّا، ثم خرجت من دورة المياه، والحيرة تأخذني هنا وهناك، وأنا لست بخير.

دخلتُ غرفتي واستلقيتُ على سريري من شدة التعب والإرهاق، فشعرتُ فجأة وكأن أحدًا جالس على طرف السرير بجواري، نظرتُ ولكني لم أجد أحدًا معي! وجوهُ الجان ورائحتهم الكبريتية، ومعالم الحفل، والخوف والقلق، كلها تتراكم على وسادتي الآن!

ماذا فعلتُ؟ يا لحماقتي! فهذه حماقتي دائمًا، تكون كوردة بيضاء، تفوح منها أذكى العطور، وحين أرويها ماءً، سرعان ما تتحول لقنفذ جعسوس، يرسل شوكه فيؤذيني.

تّمنع عني النوم، حتى رشوت وسادتي ألف دمعة لعلّي أنام. هل وضعت نفسي قبل الجحيم بأمتار قليلة؟ أو أسقطتُ نفسي في هاوية لا أعلم أين يبعد قاعها؟

ليتني امتنعتُ عن حضور ذلك الحفل، الآن بدأ الندم يتسرب من حيث لا أدري! واشتعل الرأس شيبًا، رجعتُ إلى زاوية غرفتي، تكوَّمتُ مثل الأرنب، أحاول ترتيب أفكاري قدر المستطاع، ولكني لم أعرف من أين أبدأ؟ تزاحمتْ أفكاري مع خوفي! حاولتُ أن أشتِّتَ أفكاري بين عدة أحزان، حتى لا ينفرد بي الخوف وحده ويقتلني.

هي ردة فعل لم أعلم عواقبها، وقد حدث ما حدث، وهأنذا أرتوي من كوب ندمي، على طاولة أطباقها حيرة وندم، ونادل أعور العين لا يبشر بخير يقدم لي خوفًا.

- إلى متى وأنا أحيك حماقتي؟ وحماقتي تعبث بي!
- إلى متى أرتدي ثياب ندمي؟

عكفت هذه الليلة على الكتابة، عزلتُ نفسي في غرفتي مثل الراهب، أشعر بازدحام المخاوف والقلق، والحقيقة لم أستطع أن أكتب سطرًا واحدًا، حتى تضخَّم رأسي بالأوجاع، أحاور هذا الصداع الذي يُلهب رأسي.

- لماذا أمارس هذا الاعتكاف؟
- هل تمكن مني اليأس على اختراع الأوهام؟
- لماذا لم أكن أُسعِفُ نوبات اكتئابي كما ينبغي؟

أكتب الآن وأشعر أن حزني أكبر من أوراقي، وأن ورقاتي عاجزة تمامًا عن احتوائي! فقد اختلفت اللغة بيننا، أنا أكتب بلغة المنكوبين، وورقاتي معتادة على لغة الأقلام، تأبى الكلمات الحضور فأضغطها على الأوراق بقوة حتى تتألم وترجو الخلاص.

فتحت نافذتي التي كانت تواعد الشروق، فتأتي الشمس على استحياء! حان الآن أن أنفض أوجاعي وحيرتي، وأكنس ما تبقى من الخوف، وأرتب نبضات قلبي، أما الحنين الذي بات على جدران غرفتي فعند الله أودعته.

وقد أيقنتُ حينها أن وقوفي لدى النافذة لن يأتي بكِ، ومسافات العجز غافلة عن محطاتكِ، فلا رصيف لها، وكأنكِ أقسمتِ كل صباح أن تجددي فراقكِ، وكأني أقسمتُ أن أعيش على اختراع الأمل، كل يوم أخترع أملًا جديدًا، أتصبر به حتى المساء، وأطهو خيبتي بيديّ لأجعلها أمل صباحي الجديد، وأنا على يقين بأن يومًا ما سيأتي، وتكون فيه مهلتكِ الزمنية قد انتهت بمقدار صبري وألمي. أيتها الآسرة كفى حبًا مذلًا ...

أترك النافذة المراهقة لموعدها الغرامي ... لا أعلم ما الحسد؟ حتى رأيت خيوط الشمس تدخل نافذتي، ونافذتي تشرق جمالًا!

لم يكن من السهل التخلي عنكِ، ففي غيابكِ اجتهدت باحثاً عنكِ في أربعينكِ، ولم أجدكِ. التزمتُ الصمت بانكسار يكسر ظهري، فكان الألم يصعب احتماله، وكان الضيق يمتلئ في كل شيء، حقًّا كسر القلوب سهل لمن لا يمتلكون قلبًا.

فذكرياتكِ كطفلة عابثة تحشر نفسها بين ورقاتي وقلمي، وهمسكِ يُطلُّ خجولًا من نافذة قلبي، وعطركِ يدخل متطفلًا بين رئتاي ويزاحم أنفاسي، ورحيلكِ ترك على وجهي خدشًا وخطوطًا، وإذا سألوني عنه تتشابك أصابعي وأرتبك، وأقول: خَدْشٌ صغيرٌ على وجهي، وسوف يزول بحضوركِ.

وبينما كنت أنتظر حضوركِ مر العمر، واشْتَعل الرَّأسُ شيْبًا، فقد فقدتُ شيئًا لا أمتلكه، ولن أمتلكه، وليس لديَّ سوى الخيال؛ لأجتمع بكِ، وأسرد خيالاتي قصصًا تؤلمني، وأحاسب وكأني ارتكبتُ معصية تسقطني وتقلل من شأني، بتعابير وجه عابسة، وأنا أكره ذلك.

وإن أحكمتِ قيودكِ وأسرتني بجنونِ نظراتكِ وعبث عطركِ وهمسكِ الهادر الذي يجذبني حتى أغرقُ في أعماقكِ، اليوم أكتب مستغفرًا طالبًا التوبة ونسيانكِ.

بدأت أنظر إلى ساعتي صاحبة العقارب الكسول، وقد تأخر الوقت، جلست منهزمًا في زاوية غرفتي، أطبب أوجاعي وأحيك صبري استعدادًا لآلام جديدة ...

في مساء اليوم الثاني ...

كنتُ أحبُها بشدة حتى أصبحت مِلْك غيري، فخفت البوح بحب عُذْريٍّ تقتله ثقافة مجتمع، فعيب لرجل مثلي أن يكتب لأنثى غريبة، ولكنها لم تكن غريبة!

كافيه زيتونة باي جدة

لم يكن مكانًا عابرًا ... هنا في وحي الطبيعة الجميلة، والموسيقى الخلابة، وصوت خرير الماء، تحرر قلمي للرقص على إيقاعات قلبي، وعزف على أوتار مشاعري، يحدثني المكان ثم يقسم بأن حبيبتي كانت هنا منذ أيام؛ لذا أخذتْ كل الأركان زخرفها من أجل طيف حبيبتي، فالأماكن أيضًا لها روح تجذبنا متى ما شعرنا بجمالها.

قابلتُ صديقي عبد الله في تمام الساعة التاسعة مساءً ليخبرني برغبته بالزواج وتردده، فقلت له: الوحدة ليست شيئًا جميلًا؛ لذلك خلقت الثنائيات لتؤنسنا عن مكدرات الحياة، ولو كان آدم خلق وحيدًا لما رأينا الأرض والسماء والليل والنهار والسعادة والحزن، ولو ما عرفنا مسمياتها لبقيت مجهولة إلى أن يشاء الله، لذلك وُجدت حواء لتأكد جمال الثنائيات في الفرح والحزن والرخاء والشدة والصحة والمرض، يكونان عونا، يساندان بعضهما. كذلك كانت المشيئة. توكل على الله، وأكمل نصف دينك ... فقال: إن شاء الله.

وبعد ذلك نظر في عينيَّ اللتين ارتسمتْ حولهما هالات سوداء من كثرة السهر، ووجهي أصبح ذابلًا من شدة التفكير، وكأنه أصيب بكآبةِ المنظر، وسوءِ المنقلب، والحيرة لا تفارقني وتأخذني هنا وهناك.

قال: ما بك؟
قلت: حضرتُ حفل زفاف جنية بالأمس!
ضحك وقال: كيف كانت العروس؟
قلت: أنا لا أمزح.
قال: كيف حضرتَ؟ وأين؟

حكيتُ له حضوري حفل زواج مرجانة، وما حدث حتى استفقدت قلمي ... ثم قال: لا أعلم إن كان حقيقة أو حلمًا ولكن ما رأيك أن تسافر وتغير جَوًّا أو تأخذ إجازة؟

ابتسمتُ ابتسامة صفراء، وقلت له: ألم تصدقني؟ ينتهي حينها اللقاء بصمت باهتٍ شاحبٍ كوجه أرملة، ويخرج كل من هذا الكافيه، لا أعلم أين أذهب، ركبت سيارتي، وبدأت أجوب الطرقات، حتى تمكن الفضول مني لأذهب لموقع حفل الزفاف لأسترجع قلمي المفقود فهو آخر ما تبقى من هداياك الملموسة أيتها الآسرة، فقد كان الطريق وعرًا وثقيلًا وكأن النور حرّم فيه، حتى وصلتُ لمكان الحفل، لا يوجد أحدٌ غير آثار أقدام البهائم وبعض من روثها، بحثت عن قلمي فلم أجده.

ركبت سيارتي لأعود إلى منزلي، وفي الطريق وجدت طفلًا صغيرًا دون ملامح يبكي في المقعد الخلفي بسيارتي، أوقفت السيارة وخرجت منها خائفًا ماذا أفعل؟ حاولتُ أن أهتدي لأي شيء يساعدني، ولكن المكان ظلام حالك. أجثو على ركبتي يعتصرني الفزع، وأقول: أهذه الحياة التي كنت أركل بطن أمي لأجلها؟

استجمعتُ قوتي وشجاعتي ونظرتُ إلى سيارتي، فلا يوجد أحدٌ، استعنتُ بالله متوكلًا عليه، وقدت سيارتي حتى استوقفتني لجنة تفتيش، وبعد أخذ الإثباتات قام رجل المرور بإصدار مخالفة مرورية، ظننت بأنها تجاوز سرعة، حتى وصلتُ باب منزلي، ونظرتُ في قيمة المخالفة، فوجدتُها مخالفة عدم ربط حزام الأمان لراكب بجوار السائق!

دخلتُ منزلي والخوف يأخذني هنا وهناك، توضأت وصليت، وحصنت نفسي، وتمددت على سريري أعتصرُ أرقًا حتى نمت.

وفي عصر هذا اليوم، وقد كان الجو ربيعيًّا، اتصل صديقي عوض يدعوني للذهاب إلى منطقة برية جميلة، أرضها خضراء مزينة بالورود، وحين أشرفت الشمس على الغروب قررنا التوقف للوضوء وأداء صلاة المغرب.

وجدنا طفلًا يبلغ الثامنة من العمر ممزق الملابس جالسًا بجوار شجرة دردار، لم يعر اهتمامًا بوجودنا، ولكن بعد أن انتهينا من الوضوء أراد صديقي ملاطفة الطفل، فسأله: ما اسمك؟ فقال الطفل: لن أقول لك، لكنني أعرف اسمك واسمه وأشار إليّ. فقال صديقي حسنًا، وما اسمي أنا؟ فقال الطفل: عوض وذاك عماد.

وقع الخوف في قلوبنا، وأخذْتنا قشعريرة في أجسادنا، وانسحبنا إلى سيارتنا بهدوء، بدون أن نصلي المغرب، وبعد أن

ركبنا السيارة سقط علينا صمت وحيرة قبل أن ننظر لبعضنا، سألتُه: هل تظنه ما أظن؟ قال: بالتأكيد طفل وحده، وجالس بجوار شجرة، وفي وقت المغرب مؤكد أنه جان.

حاولت استفزازه، فقلت: بالنسبة لي ليس غريبًا أن أُصاب بالرعب، ولكن أنت ما الذي أخافك؟ قال يا صديقي هذا الولد رأيته صباح اليوم في المدرسة واسمه وليد.

رجع كل منا إلى منزله، وفي تمام الساعة العاشرة مساءً وأنا في غرفتي، سمعت صوت وضوء أحدٍ على المغسلة، فتحت الباب فلم أجد أحدًا!

رجعتُ غرفتي وجلستُ على الأريكة دقائق فسمعتُ صوت صرخة ترعب القلب، دب الخوف، وبلا شعور أقفلت الباب دقائق، استجمعتُ قوتي لأفتح الباب وأبحث في منزلي عن مصدر الصوت، لكن لا وجود لساكن!

أنا الآن في أمس الحاجة إلى الهدوء والاستقرار، فالقضية ليست أبدًا بالسطحية التي تتصورها، فاعذرني على أي تعقيد أو غموض، فلست بجامح الخيال، أبوح لك بالأحداث الكبيرة بينما الأحداث الصغيرة أخفيها خجلًا من صعوبة فهمها وتعليلها وتصديقها، فجميع ورقاتي ترتعش خائفة وحزينة مثلي تمامًا، وأقلامي أصبحتْ حبلى تلد حيرة، وكل الأمور تتدحرج بالتدرج نحو الأسوأ ...

أكتب هذه الورقة وأنا يعتريني الخوف الآن، من طارق يطرق الباب، أو خروج أحدٍ أخشاه، أو سماع صراخ، فإصرار للكتابة، ليست مجرد ذريعة؛ لكي أثرثر على رؤوسكم، ولكن استمرأتُ بنقل الحدث وكل ما يدور حولي؛ لأوثق ما يحدث لي مع العالم الآخر الذي دخلته بمحض إرادتي، حقًّا تبًّا لإرادتي.

أكتب الآن بقلم يخشى المجهول، ويرجو الخلاص، وليس له سوى الانتظار، وكم أتمنى أن يكون كل هذا مجرد حلم؛ لأفوق منه وأعود حقًّا لنفسي! وعجبًا أن أتمنى، وقد فقدتُ شهية التمني من بعدكِ!

أنا لم أنكر أن حبي لكِ خرافي ومجنون، أعوام وأنا أكتب مئات الصفحات، وأنتظر ردة فعلكِ كالطفل، وأناجي دون جدوى، كرهت هذه الكتابة العقيمة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهذا الحال الذي كاد يلقيني إلى التهلكة. كيف لكِ أن تجعليني معلقًا بين الخرافات، متأرجحًا بين الأساطير؟!

يا غائبة لستُ أدري ما أسميها
كم وعدتِ بوعود لا وجود لها
كفاكِ تنتقين كلماتٍ لستِ تعنيها

فكتاباتي كطائرة VIP VVV تبدأ من نهاية المدرج، وتقلع لكِ بأجنحة مبتسمة، وتحلق في سمائكِ، وعند الهبوط يختفي الاتصال وخرائط الوصول، فلا مطار ولا مدرج، ولا مسار لتهبط كتاباتي في غير وجهتها مكسورة الأجنحة.

ربما حان الوقت لسحب الصلاحيات من قلبي ومنح عقلي فرصة التفكير النافع، بعيدًا عن تهاويم الحزن العاجزة، بعيدًا عن التسرع والاستهتار في قرارتي.

وقد أيقنتُ مؤخرًا أن قلبي كان يحتاج إلى وصي ما يدبر شؤونه، ويأخذ بيده؛ حتى يفهم أن لنبضته ثمنًا، ولوجعه معنى، وكم هو مؤسف في نهاية الأمر أن أتحمل وحدي هذه النتائج، فعادتي تغيَّرتْ، أقلامي أرهقتْ، وملامحي ذبلتْ، حتى كلماتي أصبحت قاطعة، تملؤها أدوات الأمر والنهي بعيدة عن العلة، لتمزق الصفحات نفسها بنفسها. ولا ألومها فقد أصبحت كلماتي دون معنى وحروفي دون نقاط، ولا أحترم بدايات الصفحة ولا نهايتها، فرحيلكِ كان أشبه بأعمى حين أبصر كسر عصاه، كم كنتِ بلا مروءة يا حبيبتي!

أرغب فيكِ بشدة وأُبعدكِ
تناقض مشاعر لا ينتهي
هل أتلذذ بالعذاب حقًا؟
أم أني اعتدت على الفراق!
فخفت من حقيقة الاكتمال
مترددًا حائرًا أرغب بالوحدة
وأبتسم ضَاحِكًا للثنائيات

تبًّا لهذه الحيرة التي نزلتْ على حياتي مثل الغزاة، احتلّتني بلا رحمة ... أنام وأصحو على أمل ويأس، فعند المساء أكتب لكِ وأبكى، وفي الصباح أفتح نافذة غرفتي وأنتظركِ، أي رجل في الدنيا يحلُمُ بامرأةٍ كما أحلم بكِ أنا؟!

تبًّا لهذا الغثيان اليومي لهذه الحيرة الحبلى العجوز التي تلد وجعًا وألمًا ووهمًا يكبر؛ لتصبح كتابة مشوّهة، لا تعني شيئًا، ولا تلقي خيرًا ...

أنا أكتب دون ملل؛ فلربما إن كتبتُ وسردتُ كل التفاصيل والجوانب المهمة وغير المهمة أستطيع التخلص مما أشعر به تجاهكِ ... أُخلص نفسي من تأثيركِ؛ فلربما كتاباتي أقل مرارة من الحياة التي عشتُها بتفاصيلها المؤلمة من بعدكِ ... وربما أخجل من ماضٍ جمعنا، ومن انفعالات وقعت في غير محلها، وربما أردت أن أندب حظي برقيٍّ، ولربما كنت سيئًا حقًّا معكِ.

فأنا لا أملكُ في الدّنيا إلا ذكرياتكِ، وحبكِ أصبح حديث سجادتي، فقد كتبتكِ على مدى خمسة عشر عامًا منذ رحيلكِ، فشوَّهتُ رجولتي، وقد أيقنتُ أن الوصول لكِ وهمٌ وانتحار، ومازلت على عكاز الأمل يحملني وأحمله، أحتاج أن أراكِ قبل أن يجف قلمي، وتذبل ورقاتي، وتذهب رائحة عطركِ. وأعيش عاجزًا عن اختراع الأمل، فصبري يهددني عند كل صباح بالرحيل، وأنا أصبّره بالبقاء وأكذب عليه، وأقول: ستأتي ذات يوم.

عندما أردتُ ...

أنا لا أحب عندما أردتُ أن أحب

ولكنني أحزن على رغبات غير ملباة

حاولتُ جاهدًا إتمامها

ولكنها بدت مكسورة

في كل لحظة أحاول إعادتها تجرحني

أو تتفتتُ من يدي لتضيع عليَّ فرصة تلو أخرى

تحت مسمى الحب!

وعن أي حب أتحدث؟

حب مؤذٍ يجاهد به طرف واحدٌ كالعادة!

عند كل غروب ...

منذ خمسة عشر عامًا حزين، وعند كل غروب أردد يا معين، يأتي الشوق متجبرًا متكبرًا حاملًا بيده أغلالًا وقيدًا متينًا، لتصحو ذكرياتكِ وعطركِ والحنين، وتبدأ الفوضى ويبكي قلبي الأنين، ويصعد عقلي على منبر قلبي المسكين، ويكون إمامًا ناصحًا راشدًا معينًا، قائلًا: أيها الشوق الجارح، والعطر الفائح، والحنين الضائع، إني أخاف أن تموتوا على كفرٍ مبين، فيمسكم عذاب أليم، وإني لكم ناصح أمين، إن أجري إلا على الله الرحيم المتين.

وما ذكرياتكِ وعطركِ والحنين إلا صم بكم عمي لا يفهمون.

أقسى مراحل ضعفي عندما بكيت راجيًا من الله انتزاعكِ

هل أصبحتْ ورقاتي فاضحة لرجولتي؟

فيعلم الجميع أن امرأةً تخلتْ عنه، وما الذي كان يمنع تلك الورقات أن تلتزم الصمت وتحفظ السر؟ ولم ترك رحيلكِ ندبات في وجهي؟ وسرق حواسي الخمس! ألا يخاف الحد والعقوبة؟ أم نسي لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقُطعت يدها! إلى متى أبقى في مرافعة الضمير بين قلبي وعقلي وورقاتي؟ وأنتِ بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب!

في حقيقة الأمر أنا لم أنكر أن الجن خَلْق من خلق الله سبحانه وتعالى، خلقهم الله لعبادته وطاعته، مثلهم مثلنا، غير أن الجن لهم القدرة على رؤيتنا، والتطفل بشئون حياتنا نحن البشر، يختلطون معنا كل يوم، غير أننا لا نراهم، ولا نشعر بهم إلا في حالة رغبتهم لا رغبوا هم أنفسهم في ذلك.

فهناك جن يسمى العاشق، هذا الجنس غالبًا ما يكون جنسه مختلفًا عن الإنسان الذي يعجب به، ويكون الغرض من تلبس الإنسان هو إقامة علاقة.

وهناك جن يسمى الجاثوم، يكون واقفًا خلفك حتى تنام، ويجلس فوقك وأنت نائم ويخنقك، وهو السبب الرئيس في أحلامك المزعجة.

فحولك المكان يعج بالجن من اليمين واليسار، وعند سماع صوت نباح بجوارك، فتأكد أن هناك جِنيًّا بجانبك. كما يقال: إن القرين لا ينام، ويبقى يتجول في الغرفة التي تنام بها، وربما يُسقِط شيئا عن عمد؛ لإيقاظك إذا شعر بالملل.

وأثناء وجودك وحيدًا في المنزل، يستغل خوفك من المجهول، ويقوم باللعب معك، من خلال إصدار أصوات وحركات ليبث الرعب في قلبك، أو يخفي أو ينقل الأشياء من مكانها بالرغم من وجودها الدائم في مكان محدد، كما يقال: عقل الجن ليس كعقل الإنس، فمثلا الجنى البالغ يكون عقله على قدر عقل طفل عمره عشر سنوات.

لذلك عزيزي القارئ ...

كن حريصًا عند رمي الأشياء، وسكب الماء الساخن في الحمام، أو عند القفز من مكان عالٍ، من الضروري ذكر اسم الله عند فعل كل شي؛ لأنه ربما يكون هناك جن نائم فتؤذيه، وفي هذه الحالة ردة فعله غير متوقعة.

وإياك والعبث معهم، أو التطرق لهم على سبيل المعرفة أو الفضول، فربما يكون الجهل أفضل؛ لأن المعرفة نتيجتها ستكون حالة من الرعب والهلع لن تنقطع كما حدث لي.

ولا تنس أن الشيطان عند سماعه القرآن والأذكار والتحصين يهرب ويختبئ؛ ثم يعود مرة أخرى، فالشيطان يهرب وينفر ويبتعد عن العبد عند قراءته للقرآن الكريم أو ذكره لله تعالى، لهذا اجعل لسانك رطبًا بذكر الله.

في صباح اليوم الثالث ...

اللهم لا تحمّلني مالا طاقة لي به؛ فأنت خلقتني وتعلم شتاتي وضعفي واحتياجي، فاكِفني شر خلقك، ألجأ إليك من كل ألم ووجع يُصيبُني فلا مفرّ إلا إليك

في الصباح قمت أصلي الفجر، وبعد الصلاة بدأت أقرأ سورة البقرة، وعند الوصول لقوله تعالى ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ سورة البقرة الآية ٢٥٥ وقبل انتهاء الآية شعرتُ باختناق، ورُكلت في ظهري، حاولت مواصلة القراءة فوجدت السجادة تسحب من تحتي، أكملت صفحتين وأقفلت القرآن الكريم.

اتصلت على صديقي الدكتور/ عبد العزيز؛ أحكي له ما حدث، فقال: كن على يقين أن الشيطان ضعيف، وكيده ضعيف بدليل قوله تعالى ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ سورة النساء الآية ٧٦

هنا أشبّه الشيطان بالطفل الصغير الذي إذا صرخت بوجهه بكى وخاف، وإذا أمرته بالخروج من أي مكان كان فيه، فإنه سيستجيب لك بخوف وفزع.

وأما إذا أشعرتَ طفلًا صغيرًا عابثًا بأنك تخاف منه، فإنه سوف يتمادى بالاستخفاف بك، وإذا ما تماشيتَ معه فإنه سيهزأ بك أو يضربك، هكذا حالك ما دمتَ متماشيًا معه وملبيًا لرغباته. تجنّب الوحدة؛ فالوحدة تُعين الشيطان على الإنسان، وتقوّيه عليه، والجماعة بشكلٍ عامٍ تقوي الإنسان.

أقفلتُ السماعة لإكمال سورة البقرة، ومن ثَم تأهبتُ للخروج إلى عملي، وبعد دخولي سيارتي أدرتُ محرك السيارة، وما أن أسندتُ ظهري إلى مقعد السيارة، حتى أحسست بيدٍ خفية تمسح على رأسي! أنظر باحثًا ولا أجد أحدًا! لا أعلم ما الذي أصابني! أفكاري مشتتة كأنها موجات تسونامي ضربت حياتي لتهتز، لكنني أصبّر نفسي مرارًا، وأقول: إنها مسألة وقت وسأفيق ذات يوم وينتهي كل شي، وفي يقيني الداخلي أن الموجات قد دَمرت مقياس ريختر، وحَطمت كل شيء، وغيرتْ كل معالم حياتي. حينها ساورتني كثيرٌ من الأسئلة ...

- من الذي مسح على رأسي؟
- لماذا طلبت مرجانة حضوري لحفل زفافها ومن ثم طلبت مني الخروج؟
- من الذي ركلني بظهري عند قراءتي القرآن؟
- من الذي سحب سجادتي من تحتي هذا الصباح؟

كانت الحيرة كثيفة تتمدد نحو أفكاري كصواعق برق تضرب عقلي وقلبي، سحبتُ مناديل الصمت ومسحتُ بها دموعي، ولبستُ رداء الكتمان أغطي به نفسي وحيرتي.

"سيُعوضني الله بكل شيء مررتُ به سابقًا"

في نفس اليوم وفي تمام الساعة الرابعة عصرًا اتصل بي صديقي الدكتور/ عبد العزيز، وقال: عندي لك ضيف وسنزورك بعد نصف ساعة.

فقلت له: حياكم الله، وعند الحضور وجدت الضيف شيخًا كبيرًا في السن، ذا لحية بيضاء عظيمة، ووجهًا بشوشًا كلامه مريح، سألني: ما هذا الحزن الذي ينتابك؟

تنهّدت وشكوت له حالي وحال ورقاتي، فقال: لم تكن قصة يوسف عليه السلام مجرد قصة تُقرأ، بل كانت عِبرًا وأحداثًا تُدرس، وقد أُطلق عليها أنها أحسن القصص. فقد يكون الابتلاء خير جزاء، وقد يخونك أقرب الناس إليك وتبتلى بمختلف الابتلاءات، وقد تسجن وتهان، وتصبح حديث الناس فإذا الله ينصرك بصبرك واحتسابك؛ لتصبح عزيزًا بعد أن كنت ذليلًا؛ لتصبح غنيًّا بعد أن كنت فقيرًا؛ لتكون عظيمًا بعد أن ظنوا أنك لا شيء. فبالصبر والاحتساب تكثر العطايا، لذلك اطمئن ... فرحمة الله وسعت كل شيء.

ابتسمت ببؤس، وقلت له: تأذيتُ هذا الصباح عندما قرأتُ سورة البقرة، فقال: ما أعظم هذه السورة! ففي سورة البقرة ألف نهي وألف أمر وخبر، طاردة للشيطان، مَاحقة له ولأعوانه السحرة، قال ﷺ (اقرَؤوا سورةَ البَقرةِ؛ فإنَّ أخذَها بَركةٌ، وتَركَها حَسرةٌ، ولا تَستطيعُها البَطَلةُ.) رواه مسلم

ثم قام بقراءة بعض من آيات القرآن الكريم، ونفث على وجهي حتى تمنيتُ حينها أن ينتهي اللقاء، ومن ثم قام بوصف علاج (خلطة الرومي) المكونة من السدر والشَّب والملح لمدة أسبوع.

وأخبرني بطريقة استخدامها جيدًا، مع تذكيري بالدعاء والتحصين اليومي، وقال: لا تنس أن كل الأشياء ترحل ولا تعود إلا الدعاء، يرحل بالرجاء ويعود بالعطاء.

وبعد استخدامها بثلاثة أيام بدأت أشعر بآلام في رأسي، وأضغاث أحلام لا تنتهي وأسوأ الكوابيس، كنت أسمع صرخات بمنتصف الليل، في الحقيقة كان يدب الرعب بقلبي، وأجد امرأة ذات عيون واسعة تخطف الأنظار، ولها نظرة لا تنسى، بثوب أخضر رقيقٍ شفافٍ لا يستر ما تحتها متمددة على أريكتي، تختفي حين أنظر إليها، وليس هناك أي تفسيرات لما يحدث.

هناك من الناس من يخاف من الفقد، أو من يخاف من الفشل، وهناك من يخاف من عيون الناس، وهناك من يخاف من الظلام، لكنني أصبحت أخاف شيئا آخر ... أصبحتُ أخاف من النوم، لقد استوعبتُ خطتهم المخادعة، ينسوني أذكاري وينوموني حتى ينفردوا بي عبثًا دون رأفة. أشعر حينها أن شيئًا ما يجذبني للأسفل، بحيث لا أقوى على الحركة! أكون واعيًا وغير قادر على الحركة أو الكلام، أشعر بأن هذا الجاثوم اللعين موجود على سريري، ويرغب في إلحاق الأذى بي، أسمع صوته المزعج المستمر في أذني، أشم رائحته الكبريتية الكريهة.

وفي اليوم الرابع كنت متكئًا على الأريكة أقرأ كتاب (ليتكِ تعودين) وإذا بي أرى ظلا أسود اللون يسقط من سقف غرفة نومي، دب الخوف والرعب بداخلي، وعندما ذهبتُ لأعرف ما الذي سقط من السقف على الأرض؟ لم أجد شيئًا! ويمر طفلٌ أمامي ويفتح باب المنزل ويخرج، وأتساءل من هذا الطفل؟!

- هل هو وليد الذي كان بجوار شجرة الدردار؟

احتلني الصمت طويلًا، فقدت القدرة على التمييز بين الحقيقة والخيال، أتأرجح بين نوبات الهلع، أنزلق نحو الوهم، وأصبح الخوف كعاصفة لا تُبقي ولا تذر.

ومن جديد أسمع أصواتًا غريبة من حولي، كامرأة تصرخ وأطفال يلعبون بالقرب مني! حينها أوهمت نفسي بأنه لا يوجد شيء، وإنما هي مجرد أوهام، وفي يقيني الداخلي غير ذلك.

اتصلت على الشيخ، أخبرته ما حصل لي، فقال: هذا الأمر طبيعي، فقد تستغرق مدة حرق الجان أسبوعًا أو أكثر على حسب قوة تحمل الجان ورتبته ومدة يقينك.

لذلك عليك بالاستمرار، واستعمال الماء المقروء عليه القرآن، وخاصة سورة البقرة والفاتحة وآية الكرسي والمعوذتين ودهان الزيت المقروء عليه، والمحافظة على الأذكار صباحًا ومساءً وقبل النوم.

دقائق وبدأت الأصوات تدب من جديد، وشعرتُ بقيود على أطرافي، مكثتُ دقائق على هذا الحال، أصرخ دون جدوى وكنتُ أعرف أنه لا أحد في المنزل، لا صوت أوانٍ في المطبخ يدل على أن خادمتي تطبخ شيئًا، ومن ثم اهتديتُ أخيرًا إلى - الأذكار- لأستخدم الجزء الوحيد الصالح للتحريك هنا وهو لساني. قرأتُ المعوذتين والإخلاص كل واحدة ثلاث مرات، وبعد انتهائي تحررتْ قيودي الأربعة.

- ما الذي يفكر فيه هؤلاء؟
- هل استفززْتُهم بغباء غير مقصود؟

جاهدتُ نفسي إكراهًا بإكمال الأيام المتبقية فبدأت نفسي تهدأ، وبدأت أرتب بداية خسارتي، فكنتِ أولها فورقاتي ومن ثم قلمي ...! كيف لامرأة مثلكِ أن تهز عرش استقراري وأماني؟ وتجعلني أطرق أبواب العرافات، لتسكنني ذكرياتكِ في كل مكان، فأنتِ سبب كتابة أوراقي وحزني، وامتلاء الأمنيات بالخيبات.

أدمنتُ هذه الكتابات العوجاء ليلًا، كنتُ أكتب لكِ كل ليلة حتى يأتي الصباح ويأمرني كرهًا بالتوقف عن الكتابة؛ حتى لا تصيبني اعتراضاتها، فحبي لكِ كبحرٍ من المشاعر لا يهدأ.

لماذا أكتب؟ هل هي حاجة في نفس يعقوب قضاها؟ هل هو مرض الكتابة المعتاد في فضح نفسي وكشف عورتي؟ أم أنني أحاول فقط أن أطرد ما تبقى من ذكرياتكِ في هذه الورقات!

أنا الذي ظن أن لا شي في الدنيا أقرب لكِ مني، ونسي أن بعْض الظَّنِّ إِثْمٌ، ولا أنكر أني كنتُ ساذجًا في حبكِ، حاولت أن أنساكِ، ولكن نسيانكِ هذا تمنّع عليَّ وفشلت محاولاتي.

بالله عليكِ أي عتاب يكفيكِ؟ وأي ذنبٍ تستحقين؟ عجبًا أن تجعليني أكتب صفحات، ومن ثم أمزقها دون رحمة ثم أجمع أجزاءها مرة أخرى من سلة المهملات، وأنا أكره فعل ذلك.

لماذا أكتب؟ فأنا أضع حرفًا جانب حرف؛ لأصنع كلمة تقرئينها، ثم حزنا جانب حزنٍ لتشعري بوجعي، ولا أظن ذلك ... وفي النهاية المضحكة هذا قلمي وهذه ورقاتي اللذان أتوكأ عليهما وأهش بهما على وجعي.

كنت أحتاج كثيرًا من الفوضى لأدفن فيها حيرتي، فالحيرة ما زالتْ تعبث بي، والفضول جامح لأتصل على صديقي عوض وأسأله عن وليد، فقال: وليد تم نقله إلى مدرسة أخرى صباح هذا اليوم، ولكن: لماذا تسأل عنه؟

فقلت: رأيته منذ قليل.
فقال: أين رأيته؟
فقلت: في منزلي.
فقال: هل أثرتْ فيك أحداث الرحلة الماضية؟
فقلت: خرج من منزلي ورأيتُه ولا أكذّب عيني!
فقال: استعذ بالله من الشيطان لعلك تتوهم.
فقلت: أتوهم؟! إلى اللقاء

أغلقت الهاتف وأنا حقًا في حالة توتر، كيف لي أن أتوهم؟ وأنا حقًا رأيته! وبينما أحاور نفسي، فإذا بي أسمع أصوات أوانٍ بالمطبخ فاتجهت مسرعًا متسائلًا: ما الذي يحدث؟

رأيتُ وليدًا يخرج مسرعًا من المطبخ إلى غرفة الضيوف ويقف تجاه الجدار، وظل يحدق به في صمت لبضع دقائق، ثم قال: ليس الآن ويختفي ... أنظر في أنحاء الغرفة ولا أجده!

أكتب الآن وأنا على يقين أني لم أمنح السطور حقَّها من الوجع، فلقد منحني القدر حزنًا كما يفعل بالجميع، ولكنه لم يمنحني رجوعكِ على مدى خمسة عشر عامًا.

- أبخيلة لهذا الحد أن تمنحيني مساحةً في ذاكرتكِ؟

فكيف لنا أن ننتهي بلا انتهاء؟

ولا أنكر، فأنا متورط بكِ قلبًا ينافيه عقلًا ولا حول لي ولا قوة!

إن كنتِ تقرئيني فكيف لكلماتي لا تحرك بكِ ساكنًا؟

هلا عدتِ لنكتب سويًا ورقات جديدة لا تشبه تلك الأوراق؟

ألمّ تداعبكِ يومًا ذكرياتي؟

ألمّ أكن لكِ روحكِ وعمركِ الآتي؟

ألم تشتاقي لي؟

عند المغيب ينتشرون؛ ليجدوا مأوى لهم، فيدخلون منزلك ويعبثون بممتلكاتك ... فأعقلهم بعقل طفل عمره عشر سنوات، لذلك الزم التحصين.

زان المخادع وخادمه العابث

الخدم من الشياطين يطيعون ويساعدون المارد على ما يريد، والله تعالى قد أعطى المردة من القدرة ما يزاولون به أعمالًا غريبة، مثل إفساد العلاقات بين المسلمين، بتشجيع الحسد والسّحر والغيبة والنّميمة وتخويفهم وإيقاع الأذى بهم، والكثير من ذلك.

كان الصباح الباكر من فبراير صباحًا مختلفا عن غيره، لم أدرك معناه! فشمسه تبعث ضفائرها الذهبية باستحياء وخجل وتتلون السماء بلون مشع، وتزقزق العصافير على الشبابيك تهمس بكل لطف وتقول: ما أروع هذا اليوم!

وتأتي قهوتي السمراء على خجل

أطيل النظر إليها دون أن أرتشفها

فهي صديقة كتاباتي

تسايرني وتحفظ أسراري

تحترم غروري

تجيز لي اندفاعي

تعانق هدوئي

تشتاق لمشاكساتي كل مساءٍ

تهمس لي وتجذبني حتى أغرقَ في أعماقها

تلزمني أن أكون بخير قدر المستطاع

رغم مرارتها إلا أن رائحتها تثير أحاسيسي لأعانق السماء

وتأخذني لمشارف الجنون

داعبتني ذكرياتكِ بلطف فحمَّرت وجنتي من هذه المشكاة المليئة بالجمال، ناجتني أناملي أن أكتب لكِ، جلستُ على مكتبي فلم أجد مذكرتي! قمتُ بالبحث عنها في أدراج مكتبي ورفوف مكتبتي فوجدت رسالة تجمعني بكِ، حينها استوقفتُ البحث قليلًا، وعادتْ بي الذكريات لماضٍ نقضتِ عهده، فأسرتني قيودٌ لم أتحرر منها بعد، وأهديتِني تذكرة سفر مجانية إلى أرضٍ تكاثرت بها خانة الآحاد لتحرم فيها الثنائيات.

للأسف كنتِ جميلة في كل شي، ولكن أبجدياتكِ كانت ناقصة أربعة أحرف كان ينقصها (وفاء).

ربما أحببتكِ أكثر مما ينبغي، ربما ضحيتُ ولكن في الاتجاه الخاطئ، ربما أهدرتُ كثيرًا من الوقت في الانتظار، واليوم أسجل في دفتر حساباتي أنها صفقة فاشلة. ولا مانع من أن تسجلي وتقارني في دفتر حساباتكِ، وفي نهاية الصفحة لا تنسي أن تكتبي خُسرانًا مُبينًا.

- عجبًا أن أكون واحدًا، فتبعثرني امرأةٌ حتى الفوضى!
- أ يعقل أن تكون مناعتي ضعيفةً إلى هذا الحدّ وأمرض بامرأةٍ مثلكِ!

وأكمل البحث من جديد بين حجرات منزلي، فأراكِ ولا أرى مذكرتي! أستأنف البحث فلا أثر لمذكرتي الغائبة، هل يا ترى تبعتِ خطا ورقاتي؟

وأهاتف أختي (نهاد) متسائلًا: مذكرتي لديكِ؟ فتجيب باندهاش: وهل كنتَ تتخلى عنها لدي!

أقود سيارتي مسرعًا نحو مكتب استشاراتي الذي أساعد به مَن حولي وأعجز عن مساعدتي!

أبحث عن مذكرتي في كل مكان، أين هي؟ ولا أجدها هل فقدتُها كما فقدتكِ؟ أجثو على ركبتي يعتصرني الألم، فهل الفراق محتومٌ عليَّ في كل شي أحبه؟

أردد في قلبي: يا هادي الضالّةِ، ويا رادَّ الذالّة رُدّ عليَّ ضالّتي، حتى دمعتْ عيناي حائرًا بين ضالتين حبيبتي والمذكرة، فأنا لم أكن بهذا الضعف حتى فارقتُهما!

أعود وأطرق باب العرافة؛ فليس على الموجوع حرج، فتفتح الباب، وتنظر في عينيّ فتسقط دموعي وحدها، وترسم خطوطًا باهتة على وجهي الذي أصبح ذابلًا من بؤس التفكير. ابتسمتْ وقالت: هوِّن على نفسك وادخل، فإذا بمرجانة عالقة في سقف حجرتها.

تجلس العرافة وتتمتم بكلمات غير واضحة، وترمي بذور شعوذتها على مبخرة فتفيض دخانًا، ويصبح المكان ضبابيًّا، سمعتُ صوتًا هز الجدران، صوتًا لا يبشر بالخير، يخرج عفريتٌ ويجوب المكان مسرعًا، ويقول: بصوتٍ يعلوه الخوف: مع زان مع زان.

تصمتُ العرافة دقائق، وتنظر إليّ مشفقة، لترثي ما آل إليه حالي، قائلةً بصوت مرتبك: إنه لأمرٌ يندى له الجبين! وتتأفَّف إنه زان ...

فقلتُ لها: مَن زان؟

فقالتْ: المارد زان من سرق المذكرة ليستخدمها للسحر، فهو والد مرجانة، غريب الأطوار، ذو الجسد القوي، لئيم ماكر مخادع، من نسل المارد خنزب، ذو شعر أشعث، صاحب المظهر المتوحش، يهوى العيش في البؤر العفنة، وتجذبه النجاسات والروائح القذرة، فطعامه العظم وروث البهائم، ويشارك الإنس في طعامهم وشرابهم ونكاحهم وأموالهم، يتصور في صور الإنس والبهائم، والحيات والعقارب والبغال، والحمير، والكلاب، قاطب وعابس لا يبتسم أبدًا ... متوغل في أمور الشعوذة والسحر الأسود، خادم لسحرة الإنس.

كنتُ أصغي بحذر إلى ما تقوله تلك العرافة، حتى انتهتْ ولكن قلقلي لم ينته، ولم أكن واثقًا بقدرتي، ولكن ما الذي يمنع أن أستفيد من خيبتي؟ فليس لدي ما أخسره بعد أن ضُربتُ بالذلة والمسكنة!

فقلت لها: كيف أجد زانًا؟
فقالت: صعب التعامل مع هذا الماكر!
فقلت: سأحاول، حسبي الله عليه يتوكل المُتوكلُون.
فقالت: كن حريصًا وافعل التالي:

أحضر غطاء علبة ماء، وغطاء علبة حليب، وورقًا مقوى على شكل مربع، وبعد كتابة الأحرف الأبجدية اكتب الأرقام، والأرقام تكون في سطر واحد من صفر إلى تسعة اكتبها بوضوح، ثم بالأسفل اكتب اسم زان بشكل واضح وبالمقلوب، وهذ الاسم يجب أن يكون في الوسط وأسفل الأرقام، وتبخر غرفتك بهذا البخور، ومن ثم تقرأ سورة الفاتحة ٤١ مرة وسورة الإخلاص ١٠٠٢ مرة.

قبل أن تبدأ بطقوس الإحضار تذكر أن زانًا ليس كغيره من الجان؛ فهو فوضوي بشكل لا يطاق، وهمجي جدًا وشاق، وليس لديه ولي لأنه عاق، فلن تجد منه إلا كل حاق، فسينهيك ويقول: أنا باق، احترس منه المساق، وابتعد عنه حد الفراق.

انتابني الهلع، وسكنني الفزع مما قالته العرافة، هل يستحق الأمر العبث مع مارد من خنزب؟ هل يستحق فعلًا؟ ولم لا! فقد خسرتُ كل شي، فما المانع من المجازفة أيضًا؟ فمذكرتي تستحق ذلك، وليس سوى جان من نار أطرده بآيات من القرآن.

في حيرة من أمري ...

متردّدٌ وفي حيرة من أمري

مشلول وعاجز ومعطل الحواس

مزعزع من نقاط ثباتي

مكبل من دفاعاتي

استولى اليأس على عقلي

حبيس التردد في زنزانة الاختيار

أكفرٌ يأخذني إلى كفرٍ فأقعد مَلُومًا مَدْحُورًا

عدتُ إلى منزلي والحزن يستوطنني، وبعد الساعة التاسعة مساءً، توضأتُ وصليتُ وحصنتُ نفسي لأكتب ما قالته العرافة، دقائق وسمعت صوت نهيق حمار، ورأيت نارًا في ركن مكتبي، انتابني خوفٌ عارمٌ، وخرجتُ من غرفتي فوجدت زانًا ممتدًا على باب منزلي، ضخمًا مشوهًا، يضحك، وينتف رموشه، ويقول: ماذا تريد؟

فقلت له: أريد مذكرتي.
فقال: أتعلم ما فعلتَ بمرجانة؟
فقلت له: لم أفعل شيئًا، هي من فعلتْ بي!
فقال: كيف لبشرٍ مثلك ضعيفٍ بلا قدرات، يبكي مذكرةً وأوراقًا وماضيًا معاقًا ترجو مرجانة منه عناقًا!
فقلت له: لو كنتُ ضعيفًا لما سرقت مذكرتي وهي مجرد أوراق، وإن كنتُ ذا ماضٍ معاق لما فضلت على أبتر بساق، ولو كنتُ محدود القدرات لما استثرت مرجانة بعناق.

فقام زان بضربي على وجهي، فاستفززته ... قائلًا: الضرب شيمة الضعفاء، فينظر لي متعجبًا كيف أن أكون بهذا الكبرياء! ثم قال بسخرية: مذكرتك سرقتها منك لأعمل بها سحرًا أقرب وأبعد بها من أشاء، وأصيبكم بالضيق والحزن، وأحول الحب والمودة إلى الضغائن والكراهية، وتعانوا من قلة البركة في المال والصحة وعدم التوفيق؛ فهي مفاتيح شعوذتي. ثم انصرف! تذكرتُ قوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة يس الآية ٨٣

وفي اليوم الثاني المشؤوم في تمام الساعة الواحدة صباحًا أصبح منزلي يملؤه الضيق والتعاسة، ويعبث خادم زان في منزلي فيطفئ الأنوار، ويضرب الأبواب، ويثير الضجيج بأصوات وكلمات غير مفهومة ومريعة.

أقرأ بعضًا من سورة هود وأخواتها وآيات من القرآن الكريم؛ فيهدأ منزلي ويستكن، وما أن أتوقف حتى يعود لإزعاجي بشكل أكبر، أيام وهذا حالي! أرهق وأخلد للنوم فيأتي الخادم على شكل جاثوم ليضرب على أذني فلا أسمع إلا ما يقول لي، ويحشرج صوتي حتى لا يتعدى العقول، ويشل جسدي فأفقد القدرة على الحركة، ويرميني في هاوية أجد بها أسوأ مخاوفي وأستيقظ من جديد.

وعند الساعة الرابعة صباحًا اتصل صديقي يخبرني بوفاة أخيه أحمد، وسيصلي عليه في المسجد الحرام المكي صباح هذا اليوم، وبعد الدفنة سألت الله أن يفتح له نافذة من الجنة يأتيه من بردها وطيبها حتى تقوم الساعة، اللهم اجعل مرضه كفارة لجميع ذنوبه واجعل آخر عذابه عذاب الدنيا.ومن ثم مررت على قبر أبي وأمي وأخي، أدعو لهم وأسأل الله أن يأنس وحشتهم، ويرحم غربتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، اللهم إنهم في ذمتك وجوارك فقهم من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر لهم وانقلهم من مواطن الدود وضيق اللحود إلى جنات الخلود.

وعند خروجي رأيت امرأة عجوز وجهها مليء بالتجاعيد والنمش، ومعها ثلاثة من الأطفال عند قبر أحمد! هل هي أم الصبيان التي حكى عنها صديقي؟

نظرتُ من بعيد فوجدت تلك العجوز تحفر القبر مع أحد أطفالها، وأما الآخران فيلعبان عند القبر، وكأنهما يُخفيان ما تفعل أمهما، ومازال الحفر مستمرًا، حتى فتح القبر، وتنظر إلى أحمد وتصرخ بصرخة تصم الآذان، مزعجة لا تبشر بخير، ثم ترمي العجوز لعبة بلاستيك وكيسًا صغيرًا، ومن ثم تقفل القبر وتنظر يمينًا ويسارًا ومن ثم تقف بجانب القبر وتتمتم بكلمات غير مفهومة وتبكي بصوت عالٍ، وتضرب نفسها، وتشد شعر رأسها، حتى انتهت وقامت بأخذ أولادها وتسلقت سور المقابر، وكأنها عنكبوت متشرد دون أن يراها أحدٌ.

حتى وصلتْ لنهاية سور المقابر، ونظرتْ لي ووضعت أصبعها على فمها، وأشارت لي بالصمت، ومن ثم رحلت. استوقفني الأمر لدقائق من الذهول، ولكن لن أكرر الخطأ مرة ثانية، ولن أجعل الفضول يتمكن مني ولكن ...

- كيف تدخل امرأة مع أطفالها المقابر؟
- أين رجال الأمن منها؟
- وماذا وضعت تلك العجوز في القبر؟

رجعتُ إلى منزلي وكثير من الاستفهامات تسقط أمامي، في هذه اللحظة بالذات ندمتُ على ما فعلت، كان مرًّا وعلقمًا عليَّ، وطعنة قاتلة في قلبي، فحالة الفوضى ما زالت تسكنني، أفكار قلقة، وخادم عابث، ومذكرة مفقودة، وحبيبتي غائبة، وآثار كدمات تكاد تطيح بي، سمعت صراخ أطفال فتحت باب غرفتي فوجدتهم يلعبون بمبخرتي، وتلك العجوز متمددة على أريكتي وتبتسم لهم، انتابني خوفٌ، خرجت من منزلي، وأنا أقرأ آيات من القرآن الكريم حتى هدأت نفسي.

اتصلت على صديقي عوض، وطلبت منه الحضور دقائق فأتى ودخلنا المنزل ولم نجد أحدًا! ولكن المبخرة مكسورة، ورمادها منثور على الأرض!

وبعد صلاة المغرب اتصل جاري يبكي، وطلب حضوري للمساعدة، ذهبت له لأجد ابنه نايف البالغ من العمر تسعة عشر عامًا مكبل الساقين بالحديد، عيناه بيضاوان لا وجود لبؤبؤة، يبكي ويضحك في نفس الوقت، وعلى جسمه آثار كدمات زرقاء، يتحرك بحركات غير طبيعية، وتظهر عليه تشنجات على جسمه، يلتوي حول نفسه كالثعبان، يصرخ بصوت عالٍ، وتتغير نبرة صوته لإمرأه تتحدث بكلام غير مفهوم، وكأنها تشتم الموجودين، وما أن راني حتى قام غاضبًا، وقال: هل أتيت للمساعدة؟ ساعد نفسك أولًا واخرج من هنا، انتابني خوف، وخرجت من الغرفة وسألت والده: ماذا حصل؟

قال: لا أعلم ولكن بعد صلاة العصر ظهرت عليه علامة المس! يضرب إخوته، ويريد أن يلقي نفسه من نافذة الغرفة.
قلت له: ما رأيك أن نحضر شيخًا للرقية الشرعية.
قال: طيب، اتصلتُ حينها على أحد الشيوخ وطلبتُ منه الحضور، وعند الساعة التاسعة مساءً حضر الشيخ وبدأ بالرقية الشرعية وتنطق امرأة بصوت عالٍ، وتقول: لن أخرج منه.
فقال الشيخ: لماذا؟
قالت: هذا اللعين سكب الماء الساخن في المطبخ على أولادي الصغار وحرقهم.
قال الشيخ: هو لا يعلم أن أولادك موجودون بالمطبخ، ومن ثم استمر الشيخ بقراءة آيات من القرآن الكريم حتى قامتْ بشتم الشيخ وضربه، ولكن مازال الشيخ متماسكًا يقرأ عليها، حتى نظرت في وجهي وعيناها حمراوان، وقالت لي: الشيخ لن ينفعك ولن أتركك في حالك ...

وبعد ساعة متواصلة من الرقية الشرعية عاد نايف لوضعه الطبيعي، وكأن الجنية العجوز خرجت منه، ولكن لم تخرج من العمارة التي أسكنها، وكأنها سكنت الوحدات السكنية ودهاليز العمارة.

المصعد الكهربائي يصعد وينزل كل ساعة دون وجود أحدٍ، وأنوار الدرج تفتح وتغلق وكأنها ترتعش، وأصبحت العمارة ثقيلة وكئيبة ويائسة، وأصبح سكان العمارة يشتكون من وجود أحدٍ يعبث في منزلهم، كما يحدث لي!

وبعد أسبوعين اتصل أحد الجيران، وطلب من سكان العمارة الحضور والاجتماع لديه بعد العصر، وعند الحضور كان معه شيخ من أصول أفريقية، وجهه مظلم بلا ومضة من ومضات الخير، يلبس دراعة لونها أسود، وعمامة حول رأسه، بيده سبحة سوداء، يقارب طولها مترًا و أكثر، بدأ برفع يده إلى السماء، ومن ثم تفوه ببعض من التمتمات غير المفهومة، ليست من كتاب الله ولا من الأحاديث النبوية، ومن ثم قال: تسكن عفريتة عجوز مع أولادها هذه العمارة، وهذه العجوز لها رغبة جامحة في التملك والانتقام، رأسها وعيناها كقط بري خبيث، تمارس جميع الموبقات، ثم بدأ ينظر إلي ويحرك رأسه ببطء، ومن ثم أكمل قائلاً: ولن تخرج من هذه العمارة حتى تذبحوا لها عِجْلاً جسدًا لهُ خُوارٌ، وطلب من الحضور عدم الصلاة أو قراءة القرآن لمدة ثلاثة أيام، ودفن كيسًا به بعض من الملابس. لم يعجب الحضور هذا الكلام غير الشرعي، واعتذروا وطلبوا الخروج، فقمتُ معهم للخروج، ولكن الشيخ قام وأمسك بيدي ونظر فيها، وبدأ بتمتمات غير مفهومة، ونظر إلى سقف الغرفة، ومن ثم قال: ثلاثة من الأقوياء ذوو نسب واحد يحاصرونك، ويريدون أن ينالوا منك، قلت له: ومن هم؟

قال: أنت تعرفهم، ومن ثم ابتسم.
قلتُ: وكيف أتخلص منهم؟
قال: جهز ثلاثة آلاف ريال وهذا رقمي واتصل عليّ.
قلت: إن شاء لله.

خرجت والحيرة تأخذني هنا وهناك، اتصلت بصديقي الدكتور عبد العزيز، وقلت له ما حصل، فقال لي: إياك أن تفعل ذلك، ولا تنس أن النبي ﷺ قال: (من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) رواه أبو داود

أنزل الله سبحانه وتعالى الداء وأنزل معه الدواء، عَرف ذلك مَن عرفه وجهله مَن جهله، ولكنه سبحانه لم يجعل شفاء عباده فيما حرّمه عليهم.

فلا يجوز للإنسان أن يتعامل مع الكهنة الذين يدعون معرفة المغيبات ليعرف منهم مرضه، كما لا يجوز له أن يصدقهم فيما يخبرونه به، فإنهم يتكلمون رجمًا بالغيب أو يستحضرون الجن ليستعينوا بهم على ما يريدون، وهؤلاء حكمهم الكفر والضلال.

وحتى بعد الهـول الذي صاحبني، والأمل الذي تركني، مازلتُ صامدًا في البحث عن مذكرتي، فلن أسمح لها بالرحيل كما رحلتِ، ففراقكِ كان سببًا لوجود مذكرتي، ولكن رحيل مذكرتي يجعلني وحيدًا أعاني فراقين، فكل منهما أمرٌ من الآخر، ليت الماضي يعود يومًا لأغير جميع خطواتي وأبدّل كل حكايات الخذلان بحب أبديٍّ وفرح لا ينتهي.

مبتورة دائمًا أمنياتي، ولكن قلمي أقسم على التسلق نحو الأمنيات، وأنا أثق في بطولات قلمي ...

مذكرتي ...

إن كنتِ تشعرين بي عودي، دعينا نحفظ ذكرياتنا معًا وأعدكِ أن أعتزل الحزن، وسأكتب ما يليق بكِ ...

لا تكوني مثلها غادرتْ دون أن تقول: وداعًا، فكانت سببًا لكسر قلبي وأنتِ لست مثلها، فلن تسمحي لي بالانكسار مرتين، وقد أيقنتُ أنكِ غادرتِ بدون إرادتكِ، وستعودين بإرادتي. فأنتِ لن تسمحي أن تجعلي رومانسيتي تفيض بالأسى والشجن، ولن تقفلي ورقاتكِ وتقفي أمامي متمردة، وترمي اللوم على عاتقي بشرر كالقصر، ولن تسكبي الماء على الأرض وتقولي: وكُلٌّ فِي فلَكٍ يسْبَحُون. ولن تسمحي أن تكوني ناقلة لتاريخي إلى الخلف في دول الأحزان كما فعلتْ تلك الآسرة.

وحدكِ من يعلم أني أبكي حين أكتب لها، وأنا أكتب كي لا أبكي، وأنتِ من أحصيتِ أقلامي وابتسمتِ لجمال خطي، وتخجلين من مفرداتي المخملية، ورغباتي الجائعة، ونظراتي المشاكسة، وضحكاتي العابثة، وتحفظين كل الأشياء الدقيقة، والعادات الصغيرة، كم كنتُ مشاكسًا في تلك الليالي حين أدخل على ورقاتكِ بما أوتيتُ من قوة، وأملؤها بكلمات فتبتسمين لي وتفتحين ورقات بيضاء جديدة، فأمزقها من فحش قلمي فتبتسمين وتقولين: أنت مثير وبارع، فتستحيي حينها النجمات وتهرب خجلًا، فأسامرك كالبركان مشتعلا على ضوء القمر حتى الصباح، ومن ثم أمسح ما تبقى من حبر قلمي.

وتعفو عني حين لا أحترم البدايات والنهايات في ورقاتكِ، وأنتِ وحدكِ من يعلم بتلك الضمائر المتصلة والمنفصلة التي كتبتها ولم أستطع إحصاءها.

أنا أكتب فيكِ بما يُباح ولا يُباح، وأنتِ تستريني بورقاتكِ، وتعامليني وكأني طفلكِ، وأنا أكبر منكِ بالأوجاع، فكل مساءٍ تجمعنا أسرار، حتى أنتهي منكِ لتقولي ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة الأنفال الآية ٦٤

أنتِ من أثرتُ في حقها نزاع، فكنتِ مُدعاة عليها صامتة، بكماء، تنظرين إلى وتقولين: لا عليك كل شي سيصبح على ما يرام.

أنتِ من حملتِ حقائب وجعي الثقيلة، وأزحتِ وحل اليأس من طريقي، فلولاكِ لمكثتُ أتضوّر حزنًا.

كم أنتِ جميلة بعطائكِ والهدى
كم أنتِ جميلة في أوجاعي والنهى
فبجمالكِ يا جميلتي تكمن الرُّؤى

وبينما كنت أجاهد نفسي في صراع غلبني النعاس، أنام ولا أعلم كم لبثتُ في النوم، حتى استيقظتُ على أنامل تلامس قدمي بهدوء مزعج، فأجد مرجانة تبتسم لي وتقول: الشيبُ يغزو في سواد شعرك كأنه ليل بجانبه النهار، وتترك الحياة على وجهك آثار من الخيبات ...

قلت لها: عن أي خيبات تتحدثين؟
تبتسم وتقول: هل تعلم ما الذي يمنعك مني؟
فقلت لها: ما الذي يمنعكِ مني؟
فتقول: تحصينك عند دبر كل صلاة.
فقلت لها: وما الذي كنتِ ستفعلينه؟
فتقول: أتلبس جسدك وأغويك عند المساء، ليكون قلبك وعطرك وكلماتك وورقاتك وقلمك لي وحدي، فأنا أحسد حبيبتك على هذا العشق.
ولا أنكر منذ فترة أنك كنتَ كثير الحزن والبكاء، فتمكنت منك وتلبستك لساعات، ومن ثم طردتني بآيات القرآن، وما زلتُ أجول بين رأسك وأصابع قدميك، ولم أتمكن منك حتى الآن، وإن تمكنتُ من جسدك فلن أتمكن من قلبك.
فقلت لها: وهل كنتِ ستؤذيني؟
فقالت: لا ... فأنا أتمنى حبًّا كما تحبها، وكم أحسدها عندما تكتب لها! وقد أحببتك ولن أوذيك، فحبك علمني الوفاء، دعني أن أكون لك من الناصحين ... لا تبكي ولا تكثر من حزنك، وتجنب الوحدة حتى لا تتلبسك شيطعونة بنت الأسود، وأم النور.

فقلت لها: ومن هما؟
فقالت: عند حضوري لك في أول مرة كانتا متعلقتين على باب منزلك يراقبانك، ومنعتُهما عنك بقوتي، ولكن احذر منهما فنحن نضعف، ونكثر المكر، ولا نحترم الوعود.
تنظر لي وتبتسم ثم قالت: حبيبتك ثم أوراق ثم مذكرة، ماذا ستفقد بعد؟
فقلت: يئست الفقد حتى فقدت نفسي.
تقول لي: ماذا إن أعدتُ لك نفسك!
فقلت لها: كيف ذلك؟
تخيرني: حبيبتك أم مذكرتك؟

أختار مذكرتي بدون تردد، فلا أرغب بسحر يعيد حبيبتي دون أن تعود بنفسها ... تقول: لقد اخترت الخيار الصعب، ولكن سأحاول. ترحل مرجانة، وأظل متسائلًا: ماذا لو اخترتُ حبيبتي ...

ومازلت أتساءل ...

هل أهدرتُ الكثير من الوقت فعلاً في انتظاركِ؟

هل قصدنا أن ننسى بعضنا معًا؟

هل مازلت تبحثين عن سبب يجعلني أغفر لكِ؟

هل حقاً ستعودين لتلوني حياتي؟

فقد سئمت الرماديات

أيتها الآسرة لو كتبت لكِ رسالة هل ستأبهين بها؟

أكتب لكِ شوقًا بأصابع ثابتة، وأنهيها بأصابع ترتعش وحروفٍ كالطلاسم ... ولكبريائي لم أرسلها، فالورقات البيضاء لا ذنب لها، ولا تعرف كيف تدافع عن كبريائها، حين لا تلقى لها خيرًا أو لا تجد تفاعلًا منكِ.

تمر السنين ليصبح الشوق أكثر شقاوة، وعطركِ أكثر عبثًا، والحنين أكثر صخبًا، وعجبا لبرودة مشاعركِ وردات فعلكِ. بالله عليكِ هل كان الماضي بيننا صدقًا أم كذبًا؟

تمر السنين، وأنتِ كما أنتِ بخيلة في الحضور، عميقة وعقيمة، والانتظار أصبح ضيفًا مربكًا لديه جنون السيطرة، مهملًا، يرتدي ساعة معطلة مبتورة الدقائق معطوبة الثواني، يقتل الوقت بلا اكتراث، استودعتُه اللقاء، فمكث خمسة عشر عامًا، أخوض معركة لا تطاق من الصبر، وكأني أنزلتُ حاجاتي بوادٍ غير ذي زرع.

يؤلمني أن بعض الأشياء لم تظل وفيّة

فكنتِ أولها حتى أغويتِ البقية

ومازلت أرشو قلمي ألا يكتب لكِ

والحقيقة ما زال أمل رجوعكِ

خافتاً كصعلوك يعبث بي

عبير فواح، بأنفاس الأمنيات، وصباح خجول مفعم بالأقدار، تنساب خصلات شمسه الناعمة، أصابع حانية تمحي السبات من العيون، وتقشع ستار الظلام، استيقظتُ من النوم فوجدتُ مذكرتي على مكتبي، وبجانبها رسالة من مرجانة مكتوب فيها:

امدنع ترتخا ةركذملا تعنص كسفنل افورعم كتدجوو لجر ليبن مغر تدش كملا لا كنا مل بغرت تيذاب نم بحت ولو تنك ترتخا رايخلا رخلا تنكل تضقت دهع ابح لاط هتباتك يف كؤافوف ينملع افولا لاو ينالست فيك تلصح يلع كتركذم مهالو اهنا كيدل نلا ظفاحف اهيلع.

ولك الترجمة ...

عندما اخترتَ المذكرة، صنعتَ لنفسك معروفًا، ووجدتُك رجلًا نبيلًا، رغم شدة آلامك، إلا أنك لم ترغب بأذية من تحب!

ولو اخترتَ الخيار الآخر لكنتَ نقضت عهد حبٍ طال كتابته في مذكرة، فوفاؤك علمني الوفاء ...

ولا تسألني: كيف حصلتُ على مذكرتك؟ والأهم أنها لديك الآن فحافظ عليها ... هنا أحتضن وأقبل مذكرتي فرحًا كما كنت أقبلكِ أيتها الغائبة.

"شكرًا مرجانة "

ليتني أعيد ذاتي ...

مازلتُ هنا أقف بمكاني حيث تركتِني

ومازلت أكتب لكِ وأبكي بألم وصمت

ليتني لم أكبر يومًا لأعرف الفراق فأتوجع

ليتني لم أتعدَّ المكان والزمان وأصبح هنا وأبقى هنا

صحوة المشاعر ...

الدنيا حين نفهمها تطردنا ليظل ما فهمناه سرًا تحاصره قبورنا وأوراق ذكرياتنا، تذكرتُ والدي حين قال: لا تهتم كثيرًا بأي شي؛ فهذه الدنيا لن تدوم، هي لِمَ تسمّى دار الفناء؟! وإذا عرفتَ مقدار الأجر الذي تناله بعد كل كرب ومحنة فما تعجلت الفرج، فاحمد الله في السراء والضراء، واعلم أنه إن أخذ منك فعطاؤه أكثر لا يُعد ولا يحصى.

تجاهل ... كل شيء يزعجك وتأكد أن الأيام لا تعوض، والخيبات ستنال منك. اقفل بابك جيدًا ولا تنتظر شيئًا، فرحيل العابثين لم يعد يؤلم، السبب الوحيد لرحيلهم سيمنحك عشرات الأسباب لنسيانهم، يومٌ مضى وستمضي الأيام تلو الأيام ويزداد نضجنا، دروسٌ تعلمناها وأشخاص ودّعناهم، لنتفق أنّ لا شيء يستحق الانتظار، تخطَّ المستحيلات بمغامرة، دوّن بمذكرتك قصة حتى لو كانت فاشلة يكفيك شرف المحاولة، لا تدعْ أيامك تمضي بصفحات فارغة، لتصل قناعاتك أن قيمتك الحقيقية في ذاتك لا شيء تغير سواك.

تذكر تلك المواقف التي أدمعتك! كيف مضى الوقت سريعًا دون أن ندرك أن ما كان يبكينا أصبح اليوم يُضحكنا؟

من كتابي أبجديات الأناقة

أعترف لك عزيزي القارئ

بأن مذكرتي ليست عادية، فهي من صنعتْ يومي وخففتْ ألمي، لتتقبل منى عبث كاتبٍ من محو وكتابة وشطب، تقف معي، وتفهم لغة أقلامي، فكلما ضاق بي أمرٌ احتضنتني، وكأنها تقول: أفرغ ما في جوفك فكلي لك. لتضيء مشاعري لحظة وتطفئها لحظة أخرى، ولا أنكر حقيقة أن موت المشاعر رحمة، إن ماتت حقًا ... فكم طال وعبث بي الحنين ليلًا حتى يأتي النهار لتعاتبني الشمس كرهًا!

أعترف لكِ أيتها الغائبة

كنتُ مدينًا لمرجانة بعناق، فقد عانقتها عند هذا الصباح، واعتبري هذا العناق من الأمور المعفو عنها.

وعجبًا لجنيّة تعجب بقلم أنا سيده، ومذكرةٍ تتعطر بمفرداتي المخملية لينتشر عبقها لكل من حولي وحولكِ، فكم علامة تعجب تكفي لتغطية حيرتي؟ لا أعلم بالفعل، فكيف لكِ ألاَّ تبصري؟ أخُلقتِ لتودعيني؟ أم وُجدتِ لتخلفي الوعود؟ تبًّا لقلبي الذي صدّقكِ وكذبني ... فكم كنتُ أحتاج من ثلوج الدنيا حتى أطفئ شمعتكِ وطيفكِ وذكرياتكِ؟ وكم عجزتُ أن أنفُضُ يديَّ من حبكِ الذي جاء بقدر مكتوب وراح بقدر محكوم؟ وكم كنتُ أتمنى لو أراكِ قبل أن أفقد شعوري بملذات الدنيا؟

كنصيحة عمر ...

أنا لا أكتب وفي يدي قلم من ذهب، ولا أكتب على سطور دائمة الاستقامة بل نحتت المئات من المباري أقلامي الرصاصية، ومرت الكثير من السطور المتعرجة على أوراقي ما بين انتزاعها وتمزيقها وتنسيقها. ستتعلم كيف تفارق كل مرة أحدًا، وكيف ستترك مبدأ أو حلمًا، كنتَ تحارب عليه بالأمس ستجده اليوم لا يستحق ...

لذلك لا تضع أمنياتك كلها في موقد واحدٍ، حتى لا تحترق وتصبح رمادًا، وتنتهي دون أن تجد معينًا يعين، بل كن قدريًا، وأعط الأمور بقدر حجمها، ولا تزد إلا لمن يزيد، وكف عطاءك عمن لا يستحق، تعلّم من النصيحة ولا تتعلم من الوجع وإن لم تستوعب هذه السطور السابقة وتحمي قلبك، فإني أتمنى الشفاء العاجل لقلبك.

بوح ...

عندما تتحرر من قيودك ليصبح الوقت ملكك لتعيش حديثًا،
هل ستعيد النظر وتحن لتلك القيود التي لازمتْك سابقًا أم
ستكون كأغنية عابثة تجول من حولك مرحًا؟

أستغفر الله العظيم من كلِّ ذنب أذنبته

أستغفر الله العظيم من كل شكٍّ أطعتُه

فاغفـر لي؛ إنه لا يغفـر الذنوب إلا أنت

اطمئن ... فلا تثريب على هذا، إن الخلل والصداع في أنفسنا ومشاعرنا وقلوبنا، فلدى كل منا الدفة التي توجه مشاعره إلى السبيل القويم، فمنا من يجيد استخدامها ويضفي على نفسه أسباب السعادة، ومنا من لا يحسن ذلك فيسعى ويعيش كثيرًا، وقد لا يتيقَّظ لهذا إلا بعد فوات الأوان.

ماهي إلا أضغاث أحلام ...

في صباح الخامس من يوليو استيقظتُ من النوم وصحوتُ من حلم كتبته في الورقات السابقة، وسجدتُ لله شكرًا؛ لأنه مجرد حلم وليس حقيقة.

- والحقيقة أن أوراقي لم تسقط!
- ومذكرتي لم تسرق!
- ولم أطرق باب العرافة!
- فلا مرجانة ولا مغرف ولا زان!
- أما أنتِ فأتقنتِ الغياب حلمًا وحقيقة! كم أنتِ بخيلة في الحضور!

أردد بداخلي متصبرًا: لا بأس فكل شيء سيكون على ما يرام، أسمع صوت منبه إيكيا المزعج يشير إلى الساعة السابعة والنصف صباحًا، فأتأهب للخروج من منزلي لحضور جلساتي القضائية المعتادة. وأصادف فتية لا أعرفهم يضايقون امرأة ذات شعر غجري ولباس أثرى تعرضتْ للتنمر بسبب مظهرها الغريب، فمضيتُ متجاهلًا ما يحدث، وعندما وصلتُ لمكتبي وبدأت الجلسات القضائية فإذا برجل مبتور القدم بساق واحدة لا يختلف كثيرًا عن مغرف يخاطبني مقدمًا لي مذكرة جوابية عن الدعوى المقامة لديه، وكأن الأحداث تعيد نفسها بصياغة أشخاص آخرين.

قدمت حينها على إجازة سنوية؛ لأتفرغ لكتابة هذه الأحداث وأصيغها في كتاب (أوراق سقطت من مذكرتي) فهل وفقتُ في ذلك؟

أحكي لصديقي عبد الله هذه الأحداث ... فيقسم بالله أن هذه حقيقة وليست حلمًا! وأقسم له أن عليه كفارة يمين، وماهي إلا أضغاث أحلام وما نحنُ بتأويل الأَحلام بعالمين.

فيضحك ويقول: أنا أصدقك في كل ما تقوله، ومن ثم يتمتم ويقول: ولكن كفارة يمين ونحن في نهاية الشهر! ويصمت لوهلة، ثم يقول: وما ذنبي أنك تحلم وأنا أتحمل كفارة اليمين؟

فقلتُ له: ألست بصديقي الذي يشاركني كل التفاصيل؟ ولا تنس أنَّ مغرفًا وزانًا قاما بضربي، ولم تقم بالدفاع عني يا صديقي!

فقال: امممم كفارة اليمين إذًا؟

فقلتُ له: نعم لذلك تحر الإنفاق من المال الطيب، فلن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون.

وبعد أيام اتصلتُ عليه، لأذكره فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فأجاب عليَّ طفلٌ صغيرٌ سألته: عبد الله موجود؟ فرَّد عليَّ: الرقم خطأ، فسألته: من أنت؟ فقال: وليد وقفل الخط!

- وما زلتُ أسأل نفسي: هل تحلل من القسم؟
- ومن وليد؟

ولا أنكر عزيزي القاري ...

في كتابة هذه الصفحة وبدون مقدمات لحظتُ ضعفي وساورتني استفهامات من الأسئلة وأحاطتْ بي هالة من اليأس، ضعفتُ تجاه نفسي لأنتقدها، فحياتي عبارة عن حبر وورق!

أكتبكِ في سطور وأشطبكِ في تلك الرسائل، وذلك القلم الذي مازال يعبّر عنكِ في صفحات حزينة وفي نقطة الضعف التي وصلتُ إليها ظهرت القوة لأحدث نفسي بهدوء أنيق ... فيقول عقلي:

يا صاحب الأنامل البيضاء والقلم الساحر

أنت من تملأ كتبك رفوف المكتبات

أنت من صنعتَ مجدك بقلمك

أنت من وضعتَ بصمتك بقوة وبجهدك وحدك فقط

فالكلمات تتباهى في كتب

توقف وانظر لإنجازاتك

أندهش من طريقة عقلي في محاولة استعطافي لتفادي الحزن، والطريقة التي يلجأ بها عقلي ليجعلني أستشعر مواضع قوتي وقدراتي على تحويل اللحظات التي كانت حقًّا مبهرة إلى فراغ طالما أني أردت ذلك.

اعلمي جيدًا ...

بأنني أستطيع أن أرد الصاع بصاعين

فأنا أقوى مما تظنين

وإن اعتقدتِ بأنكِ كسرتِني فلا تبتسمي

فلا يكسر الألماس إلا بالألماس مثله إن وجد

ولستِ الماس كما أعتقد

سترين نجاحي ولكنكِ لم تكوني جزءًا منه

سترين قوتي ولكنكِ لم تشعري كم ضعفتُ

سترين كتاباتي ولكنكِ لم تعلمي كم سهرتُ وعانيتُ

سترين نقاط قوتي فقط

لأنكِ لم تكوني شريك ضعفي أبدًا

فكم كنتِ بلا مروءة حين احتجتكِ!

لا تبتسمي لم أسقطْ بعد

أنا في داخلي أنفةٌ تفوقُ سخرية تفكيرِكِ

عند الساعة الواحدة ظهرًا في يوم ٢٧ / ١ / ١٤٤٤ هـ
وبعد الانتهاء الثاني من مراجعة التدقيق اللغوي لهذا الكتاب مع المدقق، وعند خروجه اختفى مفتاح سيارته، بحثنا عنه في أرجاء الغرفة ولم نجده! خرجنا للبحث بجوار سيارته ولم نجده! ابتسم وقال: هذه نتيجة الكتابة عن العالم الآخر، فقلت له: أتوقع أن هذه دعابة منهم، وبعد ساعة من البحث وجدنا المفتاح تحت أريكتي.

هل كانت مقصودة من هذا الجن المتطفل؟ كيف لا؟! وأنا من تطرقتُ لعالمهم وكتبتُ عنهم لتحرك كلماتي غرائزهم.

أما أنتِ أيتها الآسرة: فكانت كلماتي ضيفًا عند قدميكِ، تجلس أرضًا فلا مرحبًا بها ولا سهلًا، يؤسفني أنني أحبكِ بهذا العمق، وأنتِ لا تشعرين ولا تهتمين.

هل تعلمين ما الحب؟ الحب هو أني جعلتكِ بعد أمي! وقبل نفسي!

هل تعلمين ما الوجع؟ الوجع حين وجدتكِ راحلة لرجلٍ غيري.

واليوم أقسمتُ ألا أكتب لكِ، سأنشغل بكل شيءٍ حولي، سأنشغل بأتفه الأمور؛ كي لا أتذكركِ، ليس كرهًا، بل رفقًا بي.

رسالتي ...

أشعر بتلك النعم التي وهبك إياها الله في جسدك، من شعر رأسك حتى أطراف قدميك، فالحمد لله على الكمال والتمام. ابتسم وكن ذا وجه بشوش، متفائلًا بأن كل ما هو قادم خير، واصنع المعروف مع من تعرف ومن لا تعرف، وكن مطمئنًا حتى إن غادرت هذه الحياة تكن قد تركتَ بها بصمة في الحب والعطاء، وشهودًا يشهدون لك يوم اللقاء الأخير.

عندما يحب الله عبدًا يبتليه بأنواع الابتلاءات، كالمرض والفقد والعجز ثم يعيدنا إليه، فهو وحده قادر على تغيير أقدارنا، وهو بيده من يقول كُنْ فَيَكُونُ، فكيف لنا أن نرتجي الآخرين، وباب الله مفتوح لنا على الدوام!

ومن منا لا يعاني آلام الماضي، ولكن كن ذا نظرة إيجابية؛ فأخطاء الماضي سبب لصواب الحاضر، فشكرًا لكل الأخطاء الماضية، وكل الزلات التي أوصلتنا لما نحن عليه من قناعات ليست من فراغ، بل من تجارب خضناها بأنفسنا كألماس خام صقل وصقل حتى أصبح ذا منظر جميل، رغم نحته لايزال لامعًا براقًا ذا قيمة.

إلى من لا يهمه أمري ...

يعز عليَّ أنني طرقتُ سبل الوصال ولا أرغب بها، ولكنها الحياة أتبعتها سَبَبًا، فكم أنتِ محظوظة جدًا أن أكتب لكِ.

كم طلبتكِ في سجودي فكنتِ آخر أمنياتي، ولكن بعد أن استبحتِ كسري وأهملتني وتجاوزتني أصبح حضوركِ باهتًا وإن أتيتِ راكعة.

الماضي ...

مجرد قصة نرويها بين ورقات باستمرار، فنحن نحب الماضي لأنّه ذهب، لكن لو عاد لكرهناه. والحقيقة ما هي إلا لحظات ضعف كتبتها على ورق؛ لتقرأ وأمحوها متى ما أردت ذلك.

أجمل ما في الماضي أنه انصَرف، عش لنفسك فالنفس أولى بالحب والاهتمام، ثم يأتي بعدها كل شيء. اجعلْ من الظروف القاسية عليك مصدرًا يُعلمك القوة وحب الحياة، لا تجعل شيئًا يكسر القدرات الهائلة والإيجابيات التي بداخلك، لأنك قوي وتدرك جيدًا أن المستحيل يصبح ممكنًا إذا وجدت الإرادة والإصرار لديك.

ستصل في يوم من الأيام إلى النضج الذي يجعلك ترفض العلاقة الباردة أو الجدل العقيم أو التعلق بالمتغيرين، ستُسامح لمجرد البحث عن راحتك.

زاد جفاكِ اشتعالا لكن كبريائي لم يذبْ، فالنسيان حتميًّا يلزمه قليلٌ من الوقت، فلستِ سوى حبيبة على ورق أعود لكِ متى ما شئتُ الكتابة، أما واقعي فيرفضكِ، وشتان بين خيال كاتب وواقعه.

وعند كتابة هذه الأسطر الأخيرة وأنا على مكتبي بين ورقاتي المتبعثرة ألُمّ نفسي، وأرتب نبضات قلبي وأنظمها، يُطرق باب غرفتي أفتح الباب وأجد مرجانة .....

أشكركم أحبائي الكرام ...

لسعة صدوركم لقراءة هذا الكتاب الذي كُتب منكم ولكم، نحن لا نعرف بعضنا ولكن استمرأتُ أن أكتب لكم أوراقًا سقطتْ من مذكرتي. أرجو أن أكون قد وفقتُ لذلك. واستمتعتم بما قرأتم.

ربما جعلتكم تحزنون قليلًا وتبتسمون قليلًا؛ لتهربوا معي من واقع مخيب إلى خيال مليء بالإثارة والتشويق.

حافظوا على إبداعكم ...

فالبشرية بحاجة للمزيد من هذا التألق ... وجودكم أهم الأسباب! كونوا مشاعل نور تضيء دروب مَن يأتي بعدكم ... وامنعوا اليأس أن يطرق لكم بابًا أو يعرقل لكم تحقيق أمل موجود أو هدف منشود.

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. له الشكر وله الثناء الحسن. الذي وَفَّقنا في تقديم هذا الكتاب:

"أوراق سقطت من مذكرتي"

والذي أرجو أن يحظى بالاستحسان الباعث على صادق الدعوات منكم، وإقالة العثرات وتجاوز الزلات، فإن وُفقنا فمن الله عز وجل، وإن كانت الأخرى فمن أنفسنا.

وأخيرًا ...

تمر الأيام مر السحاب بل أسرع من الريح، ينقضي العمر بإسدال الستار عن شريط الحياة، نرحل ومازالت في أعناقنا أعمال ناقصة ومهام لم ننجزها وطموحات لم تتحقق، مازالتْ حسابات الآخرين معنا مفتوحة، مازالتْ وخزة الضمير تحفر أعماقنا جراء ما ارتكبناه وما سببناه لغيرنا من معاناة وآلام، وإن كانت فرصة الحياة باقية فهل لها مس الحنايا بضرورة غلق الملفات العالقة ولا نقول: اليوم، غدًا؟

يؤرقنا الليل ويذكرنا، ينسينا النهار فتذهب بنا جاذبية الحياة ومظاهرها إلى مناطق الغفلة، فنعمل لها كأننا نظل فيها أبدا، ونحتج للغد بأن الله كريم.

ماذا عساي لو تمنّعتُ في القادم الرهيب، وعلمتُ أنه اليقين وحسن الظن بالله بلا ريب، فهل لي أن أضحك؟ إن قضية الموت وفراق الأحباب قضية مؤكدة تُفرض.

لذا ... أعد جدولة برامج الحياة من جديد فلا إطلاق ولا عموم ما دامت النهاية حقيقة لا مفر منها.

لو تأملنا نهايتنا وتدبرنا ذلك الشَّطر الأهم من حياتنا لهبط الخط البياني لأخطائنا، وارتفع الخط البياني لإنسانيتنا، وأصبح لون الحب والسلام أظهر وأجمل من سائر الألوان، وصارت السعادة معنى في وجودنا.

شكرًا يا ألله أن خلقتني ورزقتني من خيرك الوافر، وأن منحتني فرصة التفكير في الإجابة والتأمل في أسئلة الحياة (من أين؟ في أين؟ إلى إين؟) فيا ألله بارك لي وأعنِّي ... لأنعم برضاك فإنه خير الرضا، وأنال منك الجزاء.

عزيزي القارئ: في حال الرغبة بتوضيح نقطة تعثرتْ لديك في كتاب (أوراق سقطت من مذكرتي) أو تكوين حلقة نقاش تدور في إطار موضوع متصل به، يسعدني التواصل عبر الكود التالي:

متمنيًا لكم حياة أنيقة تشبه تفاصيلكم. متمنيًا لكم مزيدًا من التتويج بأكاليل التوفيق والنجاح. متمنيًا لكم دعاء لا يُرد وقلبًا لا يضيق وراحة لا تغادركم.

اللهم ارحم من ضمه التراب، واشف من أنهكه الوجع والألم، وأغثْ من أثقله الهم والكَبَد، واهد من غرّته الدنيا، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ سورة الأنفال الآية ٣٣

أستغفر الله عدد ما كان، وعدد ما يكون، وعدد الحركات، وعدد السكون، وصلَى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد صاحب الشفاعة والمقام المحمود، وعلى آله وصحبه أجمعين. وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

أخوكم

عماد بن عبد الحميد طباخ
٢٠٢١ / ٠٧ / ٠٢م

استراحة نص يشبه وجعي ...

إلى اللقاء القادم ...

"في ورقات مختلفة ليست كباقي الورقات"

تم بحمد الله

صدر للكاتب ...

رسالتي

لمحات من نظام العمل السعودي

أبجديات الأناقة

أوراق سقطت من مذكرتي

قبل أن تبدأ بطقوس الإحضار تذكر أن زانًا ليس كغيره من الجان؛
فهو فوضوي بشكل لا يطاق، وهمجي جدًا وشاق،
وليس لديه ولي لأنه عاق، فلن تجد منه إلا كل حاق،
فسينهيك ويقول: أنا باق، احترس منه المساق،
وابتعد عنه حد الفراق.